جامعـــة طنطـــا
كليـــــة التـــربيـــة
قســـم اللغـــة العربيـــة

خطة بحث

منهج ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار

دراسة تحليلية مع التطبيق على ترجمة تميم بن المعز

إعداد
دكتـــور
أحمد سامى زكى منصور
كلية التربية – جامعة طنطا

٢٠٠٣ – ٢٠٠٤ م

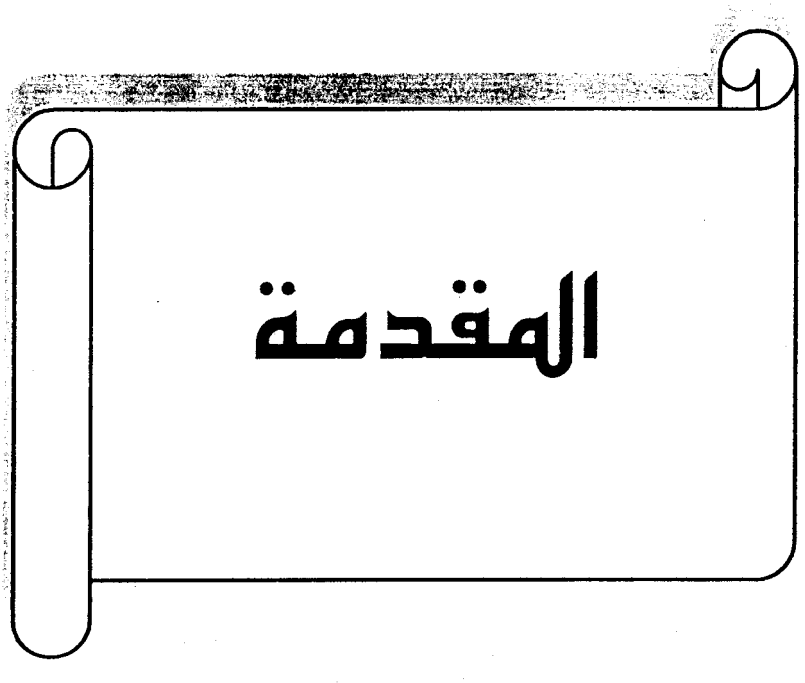
المقدمة

المقدمة:

يعد كتاب "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" من الموسوعات الهامة فى المكتبة العربية، وهى موسوعة كبيرة فى أخبار الأمم البائدة والملوك السالفة، والأقاليم وما فيها من ممالك، وما اصطلحت عليه كل مملكة فى معاملتها وجنودها، وطوائف العلماء وذوى الحرف والشعراء والأدباء بها، ونماذج من أشعارهم وأدبهم إلى غير ذلك من المعلومات التاريخية والجغرافية والثقافية المتعددة، كما أنه يمثل مصدرا هاما لدراسة عصر المماليك وبخاصة فيما يرد من معلومات عن البلاد التى تربطها صلات دبلوماسية منتظمة أو متقطعة بدولة المماليك، بالإضافة إلى من جاء بعد العمرى وحذا حذوه، واستفاد من مؤلفاته.

ولسنا نعنى بهذا أن العمرى كان أول من كتب فى هذا الاتجاه المعروف بالتأليف الموسوعى، بل سبقه إلى هذا النويرى، كما ظهرت عدة موسوعات أخرى للقلقشندى، وابن تغرى بردى وغيرها من كتب الموسوعات فى تلك الحقبة من العصر المملوكى الذى شهد نضجا وازدهارا فى مختلف العلوم والفنون مما ساعد علماؤها على التأليف والتصنيف، فكان نتاج ذلك المؤلفات الضخمة فى صورة موسوعات متخصصة فى شتى العلوم والمعارف الإنسانية.

ويقع الكتاب فى أكثر من عشرين مجلدا كبيرا، ويوجد بدار الكتب المصرية نسخة مصورة بالتصوير الشمسى، استطاع جمعها أحمد زكى باشا وقد تم طبع الجزء الأول منه، ورأيت أن أرجع أيضا إلى المصادر المعاصرة للمؤلف، والكتب القديمة والحديثة لتعيننى على تحقيق الهدف المطلوب. وعندما بدأت الكتابة حددت لنفسى منهجا معينا سرت عليه، فجعلت البحث فى ثلاثة أبواب، الباب الأول يتناول ابن فضل الله العمرى عصره وحياته وثقافته وهو ثلاثة فصول يدور الفصل الأول منه حول الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية فى عصر العمرى، ويدور الفصل الثانى حول حياته، والفصل الثالث يتحدث عن شيوخه وثقافته. ويعالج الباب الثانى أهمية الكتاب ومميزاته ومنهجه ومصادره وهو خمسة فصول يتناول فى الفصل الأول منه الموسوعات فى العصر المملوكى، وفى الفصل الثانى سبب تأليف الكتاب وتاريخ تأليفه، وفى الفصل الثالث خطة الكتاب وأقسامه، وفى الفصل الرابع مميزات الكتاب من النواحى العلمية والأدبية، وفى الفصل الخامس المصادر المختلفة لمسالك الأبصار ويعالج الباب الثالث المادة الأدبية والعلمية فى مسالك الأبصار ويدور حول الموضوعات الأدبية والعلمية فى الكتاب.

ويتناول الباب الرابع: تميم بن المعز دراسة تطبيقية.

وعلى الرغم من الفائدة العظيمة التى تعود على الباحثين والمثقفين من هذه الموسوعة التى تناولت شتاتا من علوم ومعارف ما بين تقويم وتاريخ وأدب وجغرافيا وغير ذلك من المعلومات والأخبار والروايات، وما لقته مصنفات المؤلف من تقدير الأجيال التالية له وكل ما صدر منها أقسام متفرقة بجهود فردية تتمثل فى طبع الجزء الخاص بمملوكة الهندوسية بدراسة وتحقيق د. محمد سالم بن شديد العوفى، وطبع أيضاً القسم الخاص بمملكة اليمن بتحقيق أيمن فؤاد السيد، وطبع كذلك الجزء الخاص بقبائل العرب فى القرنين السابع والثامن الهجريين بدراسة وتحقيق دورويتاكوافولسكى هذه هى الأجزاء المطبوعة منها، أما الأجزاء الباقية وما أكثرها فما زالت مخطوطة حتى الآن، ولم تر النور بعد لأنها لم تحظ باهتمام الباحثين بالبحث والدراسة اللهم إلا بالتفاتة يسيرة بوضعها ضمن الموسوعات التى ألقت فى العصر المملوكى.

ومن هنا كان اهتمامى بهذا الموضوع، وقد راقنى أن يتركز اهتمامى حول المؤلف والكتاب معاً، مع العناية بالمصادر الأصيلة التى اعتمد عليها العمرى فى كتابه، والمادة العلمية والأدبية التى أوردها المؤلف فى موسوعته.

ولا أزعم أننى كتبت كل ما يتعلق بموضوع البحث، أو وفيت الحديث عنه بكل معالمه وتفاصيله، ولكن حسبنا أننا رسمنا صورة قريبة له بحيث تظهر فى مجمله صورة مريحة مقبولة يطمئن إليها القارئ وتناسب هذا البحث الطويل.

خطة البحث

منهج ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار

دراسة تحليلية مع التطبيق على ترجمة تميم بن المعز

مقدمة :

الباب الأول : ابن فضل الله العمرى : عصره ، حياته ، ثقافته .

الفصل الأول : الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية .

الفصل الثانى : ابن فضل الله العمرى : حياته .

الفصل الثالث : ابن فضل الله العمرى : شيوخه وثقافته .

الباب الثانى : كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار .

أهميته ، ومميزاته ، ومنهجه ، ومصادره .

الفصل الأول : الموسوعات فى العصر المملوكى .

الفصل الثانى : سبب تأليف الكتاب وتاريخ تأليفه .

الفصل الثالث : خطة الكتاب وأقسامه .

الفصل الرابع : مميزات الكتاب من النواحى العلمية والأدبية .

الفصل الخامس : المصادر المختلفة لمسالك الأبصار .

الباب الثالث : المادة الأدبية والعلمية فى مسالك الأبصار .

الباب الرابع : تميم بن المعز – دراسة تحليلية .

الخاتمة :

ثبت بأسماء المصادر والمراجع .

الباب الأول

ابن فضل الله العمري عصره

وحياته وثقافته

الفصل الأول

الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية فى عصر العمرى

الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية فى عصر العمرى:

الحياة السياسية:

ما من شك فى أن البيئة السياسية التى عاشها المؤلف قد أثرت تأثيراً كبيراً فى تشكيل شخصيته حيث قامت دولة المماليك البحرية فى الفترة من سنة ٦٤٨هـ إلى ٧٨٤هـ بعد انتهاء الأيوبيين فى مصر بموت الملك الصالح نجم الدين الأيوبى واستيلاء زوجته شجرة الدر على الملك.

وقد ظهرت قوة المماليك عندما أقبل السلاطين على شراء المماليك، ويعد الملك الصالح هو أول من استعان بهم، واستكثر منهم، واتخذهم جنداً وحرساً له ويؤكد ذلك ما قاله المقريزى: "وذلك أنه لما مر به ما مر ذكره فى الليلة التى زال عنه ملكه بتفريق الأكراد وغيرهم من العسكر عنه حتى لم يثبت معه سوى مماليكه، رعى لهم ذلك، فلما استولى على ملك مصر أكثَرَ من المماليك، وجعلهم معظم عسكره... وسماهم البحرية لسكناهم معه فى قلعة الروضة على بحر النيل"[1].

هؤلاء المماليك دربت أعداد كبيرة منهم على الفنون العسكرية، والفروسية خاصة، فبرعوا فيها وصاروا فرسانا مقاتلين من الطراز الأول، وتكونت منهم مقاتلة الجيش المصرى وقوته الضاربة التى أبلت فى كثير من المعارك الضارية ضد الصليبيين والفرنجة والمغول، فأحرزوا انتصارات رائعة كبيرة سجلها التاريخ لهم وشهدت بمهارتهم الفائقة فى القتال[2].

وهكذا بدأت دولة المماليك فى مصر ابتداء بشجرة الدر سنة ٦٤٨هـ وانتهاء بالملك الصالح زين الدين حاجى سنة ٧٨٤هـ، تولى الحكم خلالها ما يقرب من خمسة وعشرين سلطانا تتفاوت مدد حكمهم ما بين أيام وشهور وسنين طويلة.

ولد المؤلف فى الفترة التى عاد فيها السلطان الملك الناصر للحكم مرة ثانية سنة ٦٩٨هـ إلى ٧٠٨هـ ولكن سرعان ما تآمر عليه اثنان من كبار أمرائه هما الأمير الجاشنكير، والأمير سيف الدين سلار نائبه، ولم يجد الملك الناصر بد من الفرار إلى الكرك بحجة سفره الى الحجاز بعد أن ضيقا الخناق عليه ، ولكنه استطاع أن يستميل أمراء الشام إليه وعمل جاهدا على أن يستعيد عرشه للمرة الثالثة فى سنة ٧٠٩هـ بعد أن قضى على من سلبوه حكمه ، وساد البلاد الاستقرار فى عهده الطويل الذى انتهى بوفاته سنة ٧٤١هـ.

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزى نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٣٥٣-١٣٥٨هـ: ٣٣٩/١.

(٢) الأدب فى العصر المملوكى، د. محمد زغلول سلام، جـ١، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م: ١٥/١.

وتولى السلطة من بعده ثمانية من أولاده، وأهم من كان منهم وأطولهم حكما السلطان الناصر حسن، فقد بلغت مدة حكمه فى حقبتين أحد عشر عاما، ولكنه كان سلطانا ظالما للرعية، أكثر من المصادرات، وجمع الأموال من الناس بحق وبغير حق[1].

وفى عهد الناصر محمد الثانية والتى شهدت ميلاد العمرى وحياته صراعا بين المماليك والمغول، وتعد موقعه "مرج الصفر" من أهم المواقع التى حدثت فى تلك الحقبة الزمنية حيث تحقق النصر فيها للناصر سنة ٧٠١هـ، ويرجع السبب فى ذلك إلى "ثبات فرسان خاصة مماليكه، فقد اكتسحت خاصة صفوف التتار، وأعقبهم بقية الجيش فبددوا جحافلهم، ولم تغرب شمس اليوم، إلا ورايات الناصر تعود مظفرة إلى أبواب دمشق ثم تدخل القاهرة ويلقاها الناس بالأفراح والتهليل[2].

وبهذا النصر دارت الدائرة على "غازان" وجنوده، وكانت هذه الوقعة بمثابة إحدى المواقع الحاسمة بين التتار ومصر.

ثم ما لبث أن عاود التتار عبثهم بجهات حلب، وحاول خليفة غازان أن ينتقم لكسرة المغول الثانية على أبواب دمشق، وأراد أن يستظهر على قوة المماليك بحلفاء التتار التقليديين من فرنجة أوربا، فراسل ملوكهم، وكان سلطان التتار هذه المرة شيعيا، وكتب إلى ملك فرنسا وملك إنجلترا رسائل، ولكنه لم يحصل على التأييد المطلوب[3].

ثم ولى الخان أبو سعيد أمر التتار وكان مسلما سنيا فتقرب إلى سلطان مصر لتأييده ضد بعض قبائل التتار التى ثارت عليه، وكاتب الناصر فى ذلك فرحب الناصر بحلفه وتأييده، ومده بما يطلب من العون، وظل السلام قائما بين مصر والتتار منذ سنة ٧٢٣هـ[4].

وبعد وفاة السلطان أبى سعيد طمع الناصر فى بعض بلاده، وأراد السيادة على بغداد قاعدة الخلافة، وكتب بذلك إلى أحد خلفاء أبى سعيد، فضربت السكة باسم الناصر فى بغداد زمنا وخطب له على منابرها، وبعث إليها بقوة من الجيش المصرى بها حتى سلطنة السلطان شعبان آخر خلفاء الناصر، فقام الخان المغولى "أويس" بإخراج تلك القوة، وبذلك قضى على آمال الناصر فى مد سيطرة الدولة إلى حدود دجلة ليضم بذلك أكثر أرض الخلافة العباسية الضائعة... واستمر السلام قائما طوال

---

(١) الأدب فى العصر المملوكى: ٢٦/١.

(٢) المرجع نفسه: ٣٧/١.

(٣) المرجع نفسه: ٣٧/١.

(٤) المرجع نفسه: ٣٧/١.

عهد الناصر محمد وخلفائه إلى أن هبت العاصفة من جديد، عاتية مدمرة من الشرق بقيادة تيمور لنك فى عهد السلطان برقوق فى الدولة الثانية[١].

وهكذا يتضح من كل ما سبق مدى ما عاناه سلاطين المماليك فى محاربة الغزاة الذين يريدون النيل من وطنهم، ومن هنا كانت الحروب التى شاهدناها ليزودوا فيها ضد أى مغتصب، ولم يقف الأمر عند هذا فحسب بل كانوا يمدون يد العون لكل من يطلب أو يستنجد بهم من أمراء المسلمين وملوكهم.

هذه هى البيئة السياسية التى عاشها ابن فضل الله العمرى، وإن بدت فى صالح حكامها، تدور فى الحق، حول الدفاع عن الأرض العربية والتى أغلب سكانها من المسلمين، سواء أكانوا بمصر أم فى البلاد التابعة لسلطنتها، وهى تتفق مع مصالح الشعب ورعاية حياته ومرافقه، والحرص على حاضره ومستقبله[٢].

الحياة الاجتماعية:

كان المجتمع فى عصر المماليك مجتمعا طبقيا؛ بمعنى أنه تألف من عدة طبقات متميزة بعضها عن بعض فى خصائصها وصفاتها ومظاهرها، فضلا عن نظرة الدولة لها ومقدار ما تتمتع به من حقوق أو تنهض به من واجبات[٣].

فالبيئة الاجتماعية وثيقة الصلة بالبيئة السياسية، لعلاقتها بنظم الدولة وإدارتها، ووثيقة الصلة بالبيئة الثقافية، لما للثقافة من تأثير كبير فى توجيه العقلية والنفسية الشعبية، اللتين عليهما مدار الحياة الاجتماعية، وبروز ما فيها من العادات والتقاليد والحضارة والفن، والبيئة الطبيعية كذلك[٤].

والواقع إن المماليك حكموا البلاد دائما بوصفهم طبقة عسكرية ممتازة، استأثروا بالحكم وبشئون الحرب، ونظروا إلى الأهالى على أنهم أقل منهم درجة أو درجات لا ينبغى لهم أن يشاركوا فى الحياة الحربية، وإذا سمح لبعضهم بالمشاركة فى شئون الحكم، فبالقدر المحدود الذى تخوله صلاحيتهم[٥].

---

(١) الأدب فى العصر المملوكى: ١/٣٧، ٣٨.

(٢) عصر سلاطين المماليك، د. محمود رزق سليم – مكتبة الآداب – ١٩٦٥م :٧/٢٠٣.

(٣) العصر المماليكى فى مصر والشام – د. سعيد عبد الفتاح عاشور – طبعة دار النهضة العربية – ١٩٦٥م: ص٣٠٨.

(٤) عصر سلاطين المماليك: ٧/٢٨٧.

(٥) العصر المماليكى فى مصر والشام: ص٣٠٨.

وهكذا احتفظ المماليك بطوائفهم ودرجاتهم على امتيازهم، وترفعهم، فهم أصحاب السيف والسلطة والثروة، وكانوا أجناسا أكثرهم من الترك، وفيهم من الجراكسة والأكراد، والتتار؛ والروم اليونان والفرنجة من أبناء أوربا[١].

هذا وقد قسم المقريزى المجتمع فى العصر المملوكى إلى سبع طبقات فقال: "الناس بإقليم مصر فى الجملة على سبعة أقسام: القسم الأول أهل الدولة، والقسم الثانى أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية، والقسم لثالث الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البر، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة، والقسم الرابع أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف، والقسم الخامس الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم. والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء، وأصحاب المهن، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم"[٢].

وعاش المماليك على اختلاف طبقاتهم عيش النعيم والرفاهية، فى قصور تجمع كل أسباب الترف يزخرفون سقوفها وحيطانها بالذهب، ويهتمون بنظامها، وحسن إدارتها[٣].

على أنه يلاحظ أن المماليك ظلوا طبقة منفصلة عن سائر السكان فى مصر والشام، فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللائى جلبهن التجار. ولاشك فى أن هذه العزلة التى عاش فيها المماليك أوجدت فجوة واسعة بين الحكام والمحكومين، مما ترك أثرا واضحا فى المجتمع المعاصر[٤].

وإلى جانب طبقة المماليك - وهم حكام البلاد - وجدت جماعة المعممين أو أهل العمامة، وهذه الطبقة كانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب، والملاحظ أن هذه الفئة امتازت طوال عصر المماليك بمميزات معينة، على الرغم مما تعرض لها أفرادها من الامتهان أحيانا[٥].

أما التجار فكانوا يؤلفون طبقة مقربة أحيانا إلى سلاطين المماليك، لأنهم أحسوا بأن التجار

---

(١) الأدب فى العصر المملوكى: ٤٨/١.

(٢) إغاثة الأمة بكشف الغمة - للمقريزى: قام على نشره مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧م: ص٧٢.

(٣) معيد النعم ومبيد النقم - تاج الدين السبكى - تحقيق محمد على النجار وآخرون، الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م - طبع دار الكتاب العربى بمصر: ص٦٩.

(٤) العصر المماليكى فى مصر والشام: ص٣١٠.

(٥) المرجع نفسه :ص٣١١.

دون غيرهم هم المصدر الأساسى الذى يمدهم بالمال فى ساعات الحرج والشدة. وتدل جميع الشواهد على أن التجار تمتعوا فى عصر المماليك بثروات طائلة، وهذا أمر طبيعى فى عصر كانت مصر حلقة النشاط التجارى بين الشرق والغرب[١]. واكتظت القاهرة وغيرهما من المدن الكبرى فى عصر المماليك بجمهور كبير من العمال والصناع والباعة والسوقة والسقائين والمكاريين والمعدمين أو أشباه المعدمين، وهى الفئات التى جمعتها المراجع المعاصرة تحت اسم "العوام" وقد عاش أفراد هذه الطبقة فى ضيق وعسر بالقياس إلى المماليك وغيرهم من الطبقات المنعمة[٢].

أما الفلاحون وأصحاب الزراعة والحرث، فقد كانت حالهم فى هذه الدولة من الانتعاش ، ثم انتكسوا بعد ذلك لكثرة ما فرض عليهم من الضرائب والأموال ، ومن تعنت الجباة والمباشرين والكشاف فى تحصيل المال ، وجمع المحاصيل أو مصادرتها، ولشدة السنين وتوالى المحن ،لقلة الماء وشح النيل . ولكن وجد بينهم أصحاب ثراء ونعمة، وأولئك الذين لم تقع أرضهم بين الشراقى، وجاءها الماء رخاء، فدرت الزرع فى وقت ضيق ومحل، فقالوا فى المحصول فآتاهم الرزق [٣].

أما أرباب المهن الصغيرة والأجراء من عمال الصناعة والخدم وأصحاب المسكنة ممن لا يملكون شيئا من المال ولا يشغلون وظيفة، ولا يحسنون عملا أو يمتهنون مهنة فإنهم يعيشون عالة على غيرهم من أرباب الحرف والصناعات وأصحاب الثراء والأعيان وأصحاب الأرض ،يحصلون منهم على الأجر لقاء ما يقومون به من عمل أو خدمة ، ويجرى عليهم السلطان والأمراء،والأغنياء المال وقت الحاجة، ويتبلغون بالصدقات كل حين[٤].

ومن ملامح البيئة الاجتماعية الاحتفالات العامة ومنها ما هو دينى ارتبط بمناسبات إسلامية، ومنها ما هو قومى حرص جميع المواطنين من مسلمين وغير مسلمين على إحيائها، وأول الأعياد الدينية هو عيد رأس السنة الهجرية، وفيه كان السلطان يصرف أرزاقا إضافية، ويطلع الخليفة والقضاة الأربعة إلى القلعة ليهنئوا السلطان بالعام الجديد، وفى عاشر المحرم يكون الاحتفال بعاشوراء فيوسع القادرون على الأهل والأقارب واليتامى والمساكين، كما يتمسكون فى هذا اليوم بطبخ الحبوب وزيارة القبور وإطلاق البخور[٥].

ثم يأتى بعد ذلك الاحتفال بالمولد النبوى فى شهر ربيع الأول فيقيم السلطان خيمة

---

(١)العصر المماليكى فى مصر والشام :ص٣١٢.

(٢) المرجع نفسه :ص٣١٢.

(٣) الأدب فى العصر المملوكى: ٦٩/١.

(٤) المرجع نفسه: ٦٩/١.

(٥) العصر المملوكى فى مصر والشام: ص٣٢٠، ٣٢١.

المولد بالقلعة، وتملأ الأحواض بعصير السكر والليمون ليقدم منها للوافدين دون تفرقة بين كبير وصغير[١].

وكان الاحتفال بدوران المحمل يتم مرتين فى السنة فى عصر المماليك:

الأولى فى النصف الأخير من شهر رجب وقد استحدثها السلطان بيبرس لإعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن، وأن من شاء فلا يتأخر ولا يتخوف، وبذلك تهيج العزمات وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء فى التأهب للحج. وتكون الدورة الثانية فى شوال وهى دورة خروج المحمل ويحتفل فيها بإحراق النفط وعمل الصواريخ، على حين يخرج الناس من كل مكان للفرجة ويتغالون فى زينة الحوانيت والأسواق[٢].

أما الأعياد القومية فى عصر المماليك فكانت كثيرة ومتنوعة، منها ما ارتبط بالسلاطين مثل الاحتفال بتولية سلطان جديد أو إبلال السلطان من مرض أو عودته سالما من سفر أو ظافرا من حرب. وفى جميع هذه الحالات تزين القاهرة ومصر بالزينات الفاخرة، ويخرج السلطان فى موكب حافل فيهرع الناس للفرجة وسط قرع الطبول وزغاريد النساء[٣].

وكان الاحتفال بوفاء النيل عظيما يشترك فيه السلطان وسائر أمراء المماليك ورجال الدولة والناس جميعا بمختلف طبقاتهم وعناصرهم، وكان يحتفل به فى صور مختلفة[٤].

وإذا ما عرضنا لموقف المرأة فى المجتمع المملوكى فأول ما نلاحظه أنها لم تكن فى الموضع اللائق، فالحجاب مفروض على المرأة الحرة، وأما الجارية فتجول فى الأسواق سافرة، لكن يفرض عليها قيود فى اللباس والسلوك.

وكانت بعض نساء الطبقات الفقيرة يشتغلن بالغزل والتطريز، والزركاش بخيوط الفضة والذهب. وظهر بينهن مع ذلك كثيرات ممن اشتغلن بالعلم وتصدرن للتدريس[٥].

وفى نفس الوقت لم تسلم المدن الكبرى فى عصر المماليك مثل أسيوط والإسكندرية - بل القاهرة - من عبث العربان وإغاراتهم عليها أو على أطرافها بغية السلب والنهب حتى الحجاج وهم

---

(١) العصر المماليكى فى مصر والشام: ص٣٢١.

(٢) المرجع نفسه: ص٣٢١، ٣٢٢.

(٣) المرجع نفسه: ص٣٢٢، ٣٢٣.

(٤) الأدب فى العصر المملوكى: ٧٩/١.

(٥) المرجع نفسه: ٧٢/١.

فى طريقهم إلى بيت الله الحرام عبر الصحراء الشرقية تعرضوا لعدوان الأعراب عليهم بالنهب والقتل، وهكذا ظل العربان طوال عصر المماليك مصدرا هاما من مصادر الفتنة والقلاقل وعدم الاستقرار[١].

ويضيق بنا المقام هنا أن نتناول كل ما كتب عن الحياة الاجتماعية فى العصر المملوكى ولكن حسبنا ما عرضناه فى صورة كشفت لنا كل ما يتعلق بالمجتمع المملوكى وأهله وعاداته وتقاليده.

الحياة الفكرية:

عاش العمرى فى بيئة خصبة مستنيرة حيث نشأ فى فترة شهدت نشاطا فكريا ملحوظا كانت بحق ازدهار عقلى وتألق حضارى فى شتى العلوم والمعارف وهذا ما انعكس بوضوح على موسوعته "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" والواقع أنه ما كان لهذا النشاط العلمى أن يزدهر فى مصر فى عصر المماليك لولا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء.

ونذكر للتمثيل لا الحصر بعضا من ملامح الحياة الفكرية:

كانت القاهرة عامرة بدور العلم والعلماء والمكتبات، حافلة بمجالس العلم والأدب، وكان اهتمام الناس بالكتب أمرا يسترعى الانتباه، فالقاهرة غاصة بأسواق الكتبيين والوراقين، وكذلك كان الحال فى دمشق[٢].

فانتشرت المدارس فى عواصم البلاد وأمها طلبة العلم، دون أن يتكلفوا شيئا، فقد كان السلاطين والحكام يقومون بتكاليف المدارس وشيوخها، ويقفون عليها الأوقاف الكثيرة، ويرتبون الرواتب الشهرية للفقهاء والعلماء، بل وربما أجريت الرواتب والجوامك على الطلبة كذلك[٣].

ويقوم بالتدريس شيوخ ومدرسون ومعيدون، والشيخ أستاذ المادة، يساعده المدرس، ويعيد المعيد دروس الشيخ لتفهيم الطلبة[٤].

ويلحق الطالب بهذه المدارس بعد إلمامه بمبادئ العلوم والمعارف وإجادة القراءة والكتابة، وحفظ القرآن، والإلمام بطرف من اللغة والنحو والحساب، وكتب فى اللوح، واستوعب بعض حديث الرسول[٥].

---

(١) العصر المماليكى فى مصر والشام: ص٣١٧، ٣١٨.

(٢) الأدب فى العصر المملوكى: ١٠٨/١.

(٣) المرجع السابق: ١٠٨/١، ١٠٩.

(٤) المرجع نفسه: ١٠٩/١.

(٥) المرجع نفسه: ١٠٩/١.

وإذا كانت الحياة العلمية قد نشطت فى عصر المماليك، فإنه يلاحظ أن الركن الأول للنشاط العلمى فى أى زمان ومكان هو الكتب والمكتبات فبدون الكتب والمكتبات لا تستطيع المدارس أن تؤدى مهمتها، ولا يستطيع المتعلمون والمعلمون أن يواصلوا رسالتهم. لذلك لا عجب إذا شهد عصر المماليك نشاطا منقطع النظير فى التأليف من ناحية، وفى جمع الكتب وإنشاء المكتبات والعناية بها من ناحية ثانية[١].

ولم يقتصر اهتمام الناس بالعلم على الانتظام فى الدرس بالمدارس والجوامع بل شغفوا بالكتب واقتنائها، فراجت تجارتها، وقرأ طلاب العلم كل ما كان يقع تحت أيديهم من الكتب الدينية والأدبية واللغوية والطبيعية والفلكية[٢].

وكان ينبه على العلماء أن يقصدوا بعملهم واجتهادهم وجه الله والنفع العام للناس لا الوصول إلى وظائف الدولة أو جمع المال، لأن باستطاعة الجهال أن يصلوا، وهذا كثير فى عصره، وباستطاعتهم أن يثروا، وهو كثير كذلك، لكن ينبغى أن يكون على العالم عفا وأن يتخذه سبيلا إلى النجاة[٣].

وكانت عملية تغذية المكتبات بالكتب مستمرة، فبالإضافة إلى مجموعة الكتب التى يحبسها صاحب المدرسة على خزانتها، استمرت المكتبات تحصل على جديد من الكتب، إما عن طريق الهدايا والهبات، وإما عن طريق النسخ، وإما عن طريق الشراء[٤].

ولما كان الغالب على العصر التعليم الدينى السنى، فقد تصدرت علوم القرآن والتفسير والحديث، ثم الفقه والأصول وكل ما يتصل بأمور الدين والشرع، وكان الاهتمام بهذه العلوم امتدادا لاهتمام الأيوبيين بها، ونبغ فيها جماعة من المشاهير المتقدمين[٥].

ومن فقهاء مصر والشام من اشتغلوا بالحديث، أو اقتصروا على الإلمام ببعض الحديث والتبحر فى علوم الفقه، وأنجب العصر جماعة من كبار الفقهاء فى البلدين، ممن عدوا مفخرة للدراسات الفقهية، وخلفوا من مآثرهم فى الكتب والرأى المتداول ما يغنى عن كل تعريف[٦].

---

(١) العصر المماليكى فى مصر والشام: ص٣٣٣.

(٢) الأدب فى العصر المملوكى: ١٢٠/١.

(٣) المرجع نفسه: ١٢٢/١.

(٤) العصر المماليكى فى مصر والشام: ص٣٣٤.

(٥) الأدب فى العصر المملوكى: ١٢٣/١.

(٦) المرجع نفسه: ١٢٩/١.

وتعد أسرة "السبكى" من أفضل فقهاء هذا العصر حيث بلغ عددهم فى القرنين السابع والثامن ما يقرب من اثنى عشر عالما وفقيها وقاضيا ومدرسا، تولى بعضهم المناصب الدينية والمدنية الكبرى، وكانت لهم الكثير من التصانيف المفيدة فى شتى فروع العلم والأدب.

كما استعانت البلاد بمن فر إليها من علماء المشرق والمغرب ففسحت لهم فى كنفها، ورحبت بهم فى ربوعها، فتولى كثير منهم التأليف أو التدريس أو الفتوى أو غير ذلك سواء أكان فى مناصب رسمية أو غير رسمية، واستمر وفود هؤلاء العلماء مطردا على وجه التقريب إلى مصر والشام طيلة العصر، فعاون ذلك على دفع نشاط الحركة العلمية والتأليفية[1].

وهكذا بلغت مصر بأبنائها والوافدين عليها، كثيرا من أهدافها فى مجال البعث العلمى والأدبى.

كما شهد هذا العصر ظهور الموسوعات فى فترة زمنية محددة تفاخر المكتبة العربية بوجودها فيها لتكون للناس مراجع وللعلم مصادر ويرجع السبب فى ظهور هذه الموسوعات بأن الظروف كانت مهيأة لبروزها؛ "ذلك لأن العصر العباسى كان قد انتهى بعد أن برزت فيه نزعة التخصص، فوفرت المؤلفات، كل منها فى علم أو فى فن. وجاء العصر المملوكى على إثره، وشغف الناس بحفظ التراث القديم حرصا عليه وإبقاء له فجد العلماء فى جمعه وتنسيقه فى صعيد واحد، فنتجت الموسوعات، وظهرت فى كل علم وفى كل فن"[2].

وإلى جانب الموسوعات كانت هناك المجموعات الأدبية التى حوت كل ألوان الشعر قديمه وحديثه بالإضافة إلى الحكم والأمثال والمكاتبات والقصص والجد والمجون والعظات والنقدات وغير ذلك.

ويمكن القول إن التزود بالثقافة الأدبية وتعنى التثقيف بعلوم اللغة وفنونها هى أساس من أسس ثقافتهم العامة، ومن يبحث فى تاريخ أكثر المنشئين والشعراء لوجدهم قد نالوا نصيبا وافرا من فنون العربية وآدابها. ولعل السبب فى نشر الثقافة الأدبية فى هذا العصر "يرجع إلى حد ما إلى وجود ديوان الإنشاء فى هذه الدولة، واهتمام السلاطين به واعتمادهم عليه فى عليا رسائلهم. وكانوا يتريثون فى اختيار كتابه ومنشئيه وبخاصة صاحب الديوان - أى رئيسه - أو كاتب السر فقد بلغ مركز كاتب السر فى بعض العهود أن كان أقرب رجال الدولة إلى سلطانها وأعرفهم بأمورهم وأكثرهم توجيها لها"[3].

---

(١) عصر سلاطين المماليك: ٢٣٠/٧.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦١/٧، ٢٦٢.

(٣) المرجع نفسه: ٢٧٥/٧.

وقد صار صاحب ديوان الإنشاء - أى رئيسه- يلقب بكاتب السر ووظيفته هى الإطلاع على أسرار الملك، والتوقيع عنه، وتفهيمه ما فى المناشير والقصص وغيرها[١].

وكانت وظائف الديوان - وبخاصة وظيفة كاتب السر - أمل الكاتب والأديب، لما تدره من مال، وترفع إليه من منزلة، وتهيئه من جاه، وكان السلاطين يتريثون فى اختيار كاتب السر وينتقونه من ذوى الفضل وأرباب العلم والفقه، ومن أهل القلم المتازين، فضلا عما يكون قد اشتهر به من دهاء وسعة حيلة وذكاء وكياسة[٢].

وكلما تحدث النقاد والأدباء عن أحد ألوان البديع، استشهدوا بأمثلة من القرآن الكريم؛ "باعتبار أن نظم القرآن الكريم يحتوى على كل الألوان البديعية، وحرصهم على الاستشهاد عليها بأمثلة من القرآن، وعثورهم فعلا على هذه الأمثلة، دفعهم إلى تحرى أساليبه والاقتداء بها فى أساليبهم، بدا ذلك فى أساليب الكتاب المنشئين، وفى أساليب الشعراء كذلك، ولكن كان عند الأول أوضح وأوسع"[٣].

ومن عناصر الثقافة الأدبية أيضا كتب النحو والصرف والتى حظيت بنصيب وافر من هذا العصر فقد وضعت فيهما أسفار قيمة، وعرف بهما رجال أفذاذ.

وهناك مظاهر أخرى تمثلت فى رغبة البلاغيين فى بعث القديم ونشره وإحيائه، دفعتهم إلى أن يعيشوا فى فلكه، ويدوروا فى مداره، فمضوا قدما فى شرح المختصرات واختصار الشروح[٤].

وكان الاهتمام بالتاريخ واضحا فى هذا العصر بصوره المختلفة سواء كان تاريخ عام للدول الإسلامية، أو تاريخ البشر أو تاريخ دولة أو بلد أو إقليم فى فترة من الزمن، أو عصر من العصور، كما ظهر الاهتمام أيضا بكتب التراجم والسير والطبقات، ومنهم من اشتهر بين الدارسين فى مختلف العلوم، ويعد مؤلف الكتاب ابن فضل الله العمرى ممن شارك فى كتابة السيرة كأحد كتاب هذا العصر وأدبائه.

وهكذا كانت الحياة الفكرية التى شهدها ابن فضل الله العمرى وعايشها بل وشارك فيها مما كان له أكبر الأثر فى شخصيته وظهور هذه الموسوعة التى نحن بصدد الحديث عنها كانت بحق شاهدة على عبقريته الفذة بقدر ما كانت شاهدة أيضا على عبقرية البيئة التى عاش فيها والظروف التى أحاطت به.

---

(١) عصر سلاطين المماليك: ٢٧٦/٧.

(٢) معيد النعم ومبيد النقم – تاج الدين السبكى: ص٣٠.

(٣) عصر سلاطين المماليك: ٢٨١/٧.

(٤) المرجع نفسه: ٢٨٤/٧.

الفصل الثانى

ابن فضل الله العمرى: حياته

نسبه:

أجمعت مصادر الدراسة على أن ابن فضل الله العمرى ينتسب إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ثانى الخلفاء الراشدين، ولذلك عُرف بالعُمَرى، وهو حريص على إثبات ذلك حين يتحدث عن مولده، فخور ومعتز بأن ينتهى نسبه إلى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهو من أسرة كبيرة جليلة من الأسرات التى تولت رئاسة ديوان الإنشاء فى مصر مدة قرن من الزمان تقريبا.

أبوه:

هو محيى الدين بن فضل الله العمرى، ولد سنة ٦٤٥هـ بالكرك، وكان صدرا كبيرا معظما فى الدولة التركية، وشاركه فى مكانته أخوه شرف الدين الذى تولى مكان القاضى تاج الدين أحمد بن الأثير، فأقام أيام الأشرف بن قلاوون وأيام أخيه الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الأولى وأيام العادل كتبغا، وأيام المنصور لاجين، وأيام الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية، وأيام المظفر بيبرس الجاشنكير، وبرهة من أيام الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثالثة[1].

ثم ما لبث أن نقله إلى كتابة السر بدمشق المحروسة عوضا عن أخيه القاضى محى الدين بن فضل الله، وولى مكانه بمصر علاء الدين بن الأثير لسابق وعده منه حين كان معه فى الكرك، وبقى حتى مرض بالفالج وبطلت حركته، فاستدعى الملك الناصر القاضى محيى الدين بن فضل الله من الشام، فولاه ديوان الإنشاء بالديار المصرية فى المحرم سنة تسع وعشرين وسبعمائة[2].

وكان ولده القاضى شهاب الدين هو الذى يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات إلى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فأعادها الملك الناصر إلى دمشق وولى مكانهما القاضى شرف الدين بن الشهاب محمود، فبقى حتى حج السلطان وعاد إلى مصر، فأعاد القاضى محيى الدين ولده القاضى شهاب الدين إلى ديوان الإنشاء بالديار المصرية، فبقيا فيها إلى أن توفى القاضى محيى الدين سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، وبقى ولده القاضى علاء الدين فى الوظيفة بقية أيام الملك الناصر، ثم أيام ولده المنصور أبى بكر، ثم أخيه الأشرف كجك، ثم أخيه الملك الناصر أحمد[3].

---

(١) صبح الأعشى- القلقشندى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر: ٩٨/١.

(٢) المصدر نفسه: ٩٨/١.

(٣) المصدر نفسه: ٩٨/١، ٩٩.

وكان محيى الدين رجلاً فاضلاً كاملاً، عالماً محترماً لنفسه، يدعو الناس إلى إجلاله، وقد أنجب ثلاثة من الأبناء[١].

عمه:

هو شهاب الدين عبد الوهاب بن فضل الله العمرى، ولد سنة ٦٢٣هـ، عمل بالكتابة، وأجاد الخط، وفاق فى الترسل المنسجم العارى من السجع والتكلف والتصنع، ولما مات الصاحب فتح الدين بن عبد الظاهر تولى بعده الكتابة عماد الدين إسماعيل بن الأثير حقبة وجيزة ثم قرر السلطان الأشرف خليل شرف الدين هذا فى كتابه السر فباشرها بقية حكم الأشرف، وبقى فى هذا المنصب حتى رجع السلطان الناصر محمد الكرك سنة ٧٠٩هـ، فنقل إلى كتابة السر بدمشق عوضاً عن أخيه محيى الدين، فدخلها فى المحرم سنة ٧١٢هـ، واستمر بها حتى مات سنة ٧١٧هـ، وكان مرتبه كل شهر ألف درهم[٢].

وبلغ فى دمشق من الوجاهة، وعلو المكانة درجة كبيرة، وقصده الشعراء والأدباء مثل شهاب الدين محمود وعلاء الدين بن غانم[٣].

وكان مترسلاً ممتعاً بحواسه، ولم يفقد منها شيئاً، ولم تتغير كتابته، وكان مقدراً من سلاطين المماليك وأمرائهم كأخيه محيى الدين، بل فاقه فى ذلك[٤].

قال عنه ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة: "وكان إماماً فى الكتابة والإنشاء عارفاً بتدبير الملك، مليح الخط، غزير العقل"[٥]. وقال أيضاً: "كان كاملاً فى فنه، لم يكن فى عصره من يدانيه أو يقاربه"[٦].

وكانت وفاته بدمشق سنة ٧١٧هـ.

أخوته:

وبمراجعة ما كتبه كُتَّاب التراجم والمؤرخون عن حياة العمرى تبين لنا أن له شقيقين أحدهما علاء الدين على بن محيى الدين بن فضل الله، وهو ثانى أبناء محيى الدين. "تولى كتابة السر للسلطان

---

(١) البداية والنهاية فى التاريخ – لابن كثير، طبع بمصر ١٣٥١-١٣٥٨هـ : ١٨٣/١٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٠٧/١٤.

(٣) الأدب فى العصر المملوكى: ٦٤/٢.

(٤) المرجع نفسه: ٦٥/٢.

(٥) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة – طبع دار الكتب المصرية، ١٩٤٠م: ٢٤٠/٩.

(٦) المصدر نفسه: ٢٤٠/٩.

الناصر محمد سنة ٧٣٥هـ بعد عزل أخيه شهاب الدين، وظل على كتابة السر بعد موت الناصر وطوال حكم السلطان المظفر حاجى والسلطان الناصر حسن"[١].

أما الشقيق الثانى فهو بدر الدين بن محيى الدين بن فضل الله، ثالث أبناء محيى الدين، "تولى بعد أخيه علاء الدين كتابة السر، وهو آخر من اشتهر ذكرهم من آل فضل الله العمرى ممن ولى الكتابة فى هذا العصر"[٢].

كما تخصص عدد من أقاربه فى الكتابة بديوان الإنشاء فترة طويلة من الزمن، وقد أشار بذلك السيوطى فى كتابه "حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة" حيث عقد فصلاً بعنوان "ذكر كُتَّاب السر" تناول فيه ممن ولوا الكتابة فى هذا العصر من آل فضل الله العمرى.

مولده ونشأته:

هو أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المجلى دعجان بن خلف بن أبى الفضل نصر بن منصور بن عبيد الله بن عدى بن محمد بن أبى بكر عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، القاضى شهاب الدين أبو العباس ابن القاضى أبى المعالى محيى الدين القرشى العدوى العمرى[٣].

وهو ثانى أولاد محيى الدين يحيى، كان مولده ومنشأه ووفاته فى دمشق، فقد ولد "فى الثالث من شوال سنة سبعمائة"[٤].

وكان إماماً بارعاً، وكاتباً فقيهاً، درس على كثير من علماء عصره وأدبائه، واتصل بمشاهيرهم ممن كانوا يرتادون مجلس والده محيى الدين أثناء توليه كتابة السر بمصر أو بالشام[٥].

مارس الفتيا على مذهب الإمام الشافعى، بعد أن أذن له الشيخ شمس الدين الأصبهانى

---

(١) البداية والنهاية: ٢٢٥/١٤.

(٢) النجوم الزاهرة: ٣٣٩/٧.

(٣) مصادر الترجمة:

تاريخ أبى الفدا ١٥٥/٤، فوات الوفيات ١٥٧/١-١٦٧، ذيل العبر للذهبى ١٥٢/٤، البداية والنهاية ١٦٥/١٤، الوافى بالوفيات ٢٥٢/٨-٢٧٠، الدرر ٣٥٢/١ - ٣٥٤، والنجوم الزاهرة ٢٣٤/١٠-٢٣٥، المنهل الصافى ٣٩/٢-٤٠، الدليل الشافى ٩٦/١، وحسن المحاضرة ٥٧١/١، بدائع الزهور ١٧٣/١، شذرات الذهب ١٦٠/٦، والأعلام ٢٥٤/١، ومعجم المؤلفين ٢٠٤/٢-٢٠٥.

(٤) النجوم الزاهرة: ٢٣٤/١٠، ذيول العبر: ١٥٢/٤، تاريخ آداب اللغة العربية: ٢٤٢/٣.

(٥) الأدب فى العصر المملوكى: ٦٧/٢.

(المتوفى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م) فى ذلك، كما درس العلوم المختلفة على عدد من العلماء البارزين فى عصره[١].

وفى ولاية الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م) كان كاتب سره علاء الدين بن الأثير، إلا أنه عجز عن القيام بمهام عمله، بسبب إصابته بمرض الفالج، فاستدعى محيى الدين بن فضل الله العمرى من الشام، وأسند إليه منصب رئيس ديوان الإنشاء فى مصر، وذلك سنة (٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، وكان يعاونه ابنه شهاب الدين أحمد، الذى كان يقرأ البريد على السلطان، وينفذ المهمات، وبقيا على هذا الوضع إلى سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م)، حيث أعادهما الناصر محمد قلاوون إلى دمشق، وولى مكانهما، شرف الدين بن الشهاب محمود، وحج السلطان فى ذلك العام، وبعد عودته أعاد القاضى محيى الدين، وابنه شهاب الدين إلى ديوان الإنشاء فى مصر، وذلك سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م) إلى سنة (٧٣٨هـ/١٣٣٧م) وهى السنة التى توفى فيها القاضى محيى الدين، ويبدو أن السلطان الناصر قد تغير على القاضى شهاب الدين، حيث عزله عن ديوان الإنشاء، وولى مكانه أخاه القاضى علاء الدين[٢].

وجرى له ما جرى مع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولزم بيته، ثم حج وحضر، وغضب عليه السلطان واعتقله بقلعة الجبل، وأخذ منه مئة ألف درهم، ولما أمسك الأمير سيف الدين تنكز ولاه السلطان كتابة السر فى دمشق فحضر إليها يوم عاشوراء، سنة إحدى وأربعين وسبع مائة، وباشر ذلك إلى آخر أيام أيدغمش نائب الشام، وتوجه إلى حماة ليتلقى الأمير سيف الدين طغزتمر من حلب فجاءه الخبر فى حماه أنه قد عزل بأخيه القاضى بدر الدين محمد فجاء إلى دمشق، وذلك سنة ثلاث وأربعين وسبع مئة، وبقى فى الترسيم بالفلكية قريبا من أربعة أشهر، وطلب إلى مصر فما وصل إلى مصر حتى شفع فيه أخوه علاء الدين كاتب السر بمصر ورده من الطريق، فقال: لابد من أرى وجه أخى، فدخل مصر، وأقام أياما، وعاد إلى دمشق بطالا، ولم يزل بها مقيما فى بيته إلى أن حدث الطاعون بدمشق فقلق منه، وتطاير به، وعزم على الحج، ثم أبطله، وتوجه بأهله إلى القدس، فتوفيت هناك زوجته ابنه عمه، فدفنها هناك، وما به قلبة غير أنه مروع من الطاعون، فحصل له يوم وصوله حمى ربع، ودامت به إلى أن حصل له صرع، فمات منه، وسكن ذلك الهدير، ونضب ذلك الغدير[٣].

---

(١) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (فى مملكة الهند والسند) – ابن فضل الله العمرى – تحقيق د. محمد سالم بن شديد العوفى: ص١١.

(٢) المصدر نفسه: ص١٤.

(٣) د. محمود سالم محمد – ط دار الفكر – دمشق – سوريا: ١٩٩٧م: ١/٤١٩، ٤٢٠.

وقد اتهمه ابن العماد بأنه كان شرساً لايهاب السلطان، بل عارضه وأغلظ له، فأبعده، وصادره وسجنه بالقلعة زمناً، ثم أخرج إلى الشام سنة ٧٤٠هـحيث تولى كتابة السر بدمشق حقبة ثم عزله مرة ثانية ورسم عليه أربعة أشهر وطلب إلى مصر، فشفع فيه أخوه علاء الدين فعاد إلى دمشق، وظل بها لا يشغل وظيفة إلى أن مات، كما عاصر فى دمشق نائبها الطبنغا بعد أن قبض على تنكز[1].

وكانت وظيفة ديوان الإنشاء من الوظائف الهامة فى الدولة "لا يتولاها إلا أجلّ كتاب البلاغة، ويخاطب بالأجل، وكان يقال له كاتب الدست الشريف، وإليه تسلم المكاتبة واردة مختومة فيعرضها على الخليفة من يده؛ وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها وربما بات عند الخليفة ليالى؛ وهذا أمر لا يصل إليه غيره. وهو أول أرباب القطاعات فى الكسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه أحد ولا يجتمع بأحد من كتابه إلا الخواص؛ وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمخادّ والمسند، والدواة العظيمة الشأن؛ ويحمل دواية أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة[2].

ويعد العمرى أحد رؤساء دواوين الإنشاء بمصر والشام إذ ذاك[3]. وقد تولى هذا العمل نظراً لما يتمتع به من مكانة علمية مرموقة، وذوق أدبى وفنى رفيع مما أهله لأن يتبوأ هذه الوظيفة.

وفاته:

وكان وفاته يوم عرفة سنة تسع وأربعين وسبع مئة، ودفن بتربتهم بالصالحية[4].

وفى رواية أخرى أنه خرج للحج سنة ٧٤٣هـ وجاور مكة حيث توفى هناك سنة ٧٤٩هـ ولم يتجاوز سنه الخمسين، ونقل إلى دمشق حيث دفن بها مع أبيه وأخيه بسفح قاسيون[5].

---

(١) الأدب فى العصر المملوكى: ٦٧/٢.

(٢) صبح الأعشى – القلقشندى: ١٠٢/١.

(٣) ذيول العبر فى خبر من غبر – الحافظ الذهبى – تحقيق محمد السعيد بن بسيونى زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان: ١٥٢/٤.

(٤) المصدر نفسه: ١٥٢/٤، الدرر الكامنة: ٣٣١/١-٣٣٣.

(٥) الأدب فى العصر المملوكى: ٦٨/٢.

الفصل الثالث

ابن فضل الله العمرى : شيوخه وثقافته

شيوخه وثقافته:

تعلم العمرى فى دمشق حيث ولد فيها، وفى القاهرة والإسكندرية والحجاز، وبلاد الشام، وتقلد جملة وظائف هامة، ولعل كتابه "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" يعكس لنا فيه ثقافته وخبرته فى مجال الكتابة والإنشاء، وما أتاحه له عمله فى ديوان الإنشاء من إطلاع واسع على أسرار الدولة المملوكية، وأحوال الممالك الإسلامية الأخرى.

ويبدو من مطالعتنا لمسالك الأبصار أن العمرى قد تتلمذ على أفضل علماء عصره، فيذكر لنا الصفدى أنه "قرأ العربية أولا على الشيخ كمال الدين ابن قاضى شهبة، ثم على قاضى القضاة شمس الدين ابن مسلم، وتفقه على قاضى القضاة شهاب الدين ابن المجد عبد الله، وعلى الشيخ برهان الدين، وقرأ الأحكام الصغرى على الشيخ تقى الدين بن تيمية، والعروض على الشيخ شمس الدين الصائغ وعلاء الدين الوداعى، وقرأ جملة من المعانى والبيان على العلامة شهاب الدين محمود، وقرأ عليه جملة من دواوين العرب، والأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهانى، وأخذ اللغة عن الشيخ أثير الدين: سمع عليه "الفصيح" "والأشعار الستة" والدريدية، وأكثر "ديوان أبى تمام" وغير ذلك، وسمع بدمشق من الحجاز وست الوزراء وابن أبى الفتح. والحجاز ومصر والإسكندرية وبلاد الشام وأجاز له جماعة[1].

كان إماما فى الأدب والتاريخ والإنشاء، وله مشاركة فى سائر العلوم على اختلاف موضوعاتها، واشتهر بقوة الحافظة، وإذكاء القريحة، وسلامة الذوق، وبلاغة الأسلوب، وكانت له معرفة دقيقة بتاريخ المغول، وملوك الهند والأتراك، والممالك والمسالك، وخطط الأقاليم وطبائعها وعلم الهيئة[2].

وقد وصفه الصفدى بأنه "الإمام الفاضل البليغ المفوه الحافظ حجة الكتاب، إمام أهل الآداب، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا، وتوصلا إلى غايات المعالى وتوسلا، وإقداما على الأسود فى غابها، وإرغاما لأعاديه بمنع رغابها، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهب، ويتحدر سيله ذاكرة وحفظا ويتصبب. ويتدفق بحره بالجواهر كلاما، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المتسرعة نظاما، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة، وتندى عبارته انسجاما وصياغة، وينظر إلى غيب المعانى من ستر

---

(١) الوافى بالوفيات – محمد يوسف نجم – دار صادر بيروت ١٤٠١هـ – ١٩٨١م: ٢٥٤/٨، ٢٥٥، الدرر الكامنة: ١٥٧/١-١٦١.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية – جرجى زيدان – ط دار الهلال ١٩٥٧م: ٢٤٢/٣-٢٤٤.

رقيق، ويغوص فى لجة البيان فيظفر بكبار الدر من البحر العميق، استوت بديهته وارتجاله، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله، يكتب من رأس قلمه بديها، ما يعجز تروى القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيها، وينظم من المقطوع والقصيدة جوهرا، ما يخجل الروض الذى باكره الحيا مزهرا، صرف الزمان أمرا ونهيا، ودبر المالك تنفيذا ورأيا، وصل الأرزاق بقلمه، ورويت تواقيعه وهى إسجالات حكمه وحكمه، لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه[1].

ولعل كل ما ذكرناه يؤدى إلى القول بأن ابن فضل الله العمرى قد تتلمذ على أفضل علماء عصره، مما انعكس هذا على ثقافته وشخصيته، وبالتالى على موسوعيته، وكان من بين من أثنى عليه ومدحه ابن حجر فيقول: "إنه كان يتوقد ذكاء مع حافظة قوية وصورة جميلة واقتدار على النظم والنثر حتى كان يكتب من رأس القلم ما يعجز عنه غيره فى مدة مع سعة الصدر وحسن الخلق وبشر المحيا"[2].

ويعود الصفدى فيصف ابن فضل الله العمرى بقوله: "رزقه الله أربعة أشياء لم أرها اجتمعت فى غيره؛ وهى: الحافظة، قلما طالع شيئا إلا وكان مستحضرا لأكثره، والذاكرة التى إذا أراد ذكرى شئ من زمن متقدم كان ذلك حاضرا كأنه إنما مر به بالأمس، والذكاء الذى تسلط به على ما أراد، وحسن القريحة فى النظم والنثر، أما نثره فلعله فى ذروة كان أوج الفاضل لها حضيضا، ولا أرى أحدا يلحقه فيه جودة وسرعة عمل لما يحاوله فى أى معنى أراد، وأى مقام توخاه، وأما نظمه فلعله لا يلحقه فيه إلا الأفراد، وأضاف الله تعالى له إلى ذلك كله حسن الذوق الذى هو العمدة فى كل فن. وهو أحد الأدباء الكملة الذين رأيتهم؛ وأعنى بالكملة الذين يقومون بالأدب علما وعملا فى النظم والنثر ومعرفة بتراجم أهل عصرهم ومن تقدمهم على اختلاف طبقات الناس وبخطوط الأفاضل وأشياخ الكتابة، ثم إنه يشارك من رأيته من الكملة فى أشياء وينفرد عنه بأشياء بلغ فيها الغاية، وقصر ذلك عن شأوه لأنه جود فن الإنشاء: النثر وهو فيه آية. والنظم وسائر فنونه، والترسل البارع عن الملوك، ولم أر من يعرف تواريخ ملوك المغل من لدن جنكز خان وهلم جرا معرفته وكذلك ملوك الهند الأتراك. وأما معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم ومواقع البلدان وخواصها فإنه فيها إمام وقته وكذلك

---

(١) الوافى بالوفيات – الصفدى: ٢٥٢/٨، ٢٥٣.

(٢) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة – لابن حجر العسقلانى – تحقيق محمد سيد جاد الحق، مطبعة المدنى – القاهرة ١٩٦٧م: ٣٣١/١-٣٣٣.

معرفة الاسطرلاب وحل التقويم وصور الكواكب"[١].

مؤلفاته:

وضع العمرى، فى حياته القصيرة عددا من الكتب والمؤلفات تفاوتت فى الحجم والموضوع وتتمثل فى:

١- كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" ألفه العمرى سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م) وهو كتاب متوسط الحجم، يعد أنموذجا فى فن الكتابة، حيث ضمنه كل ما يحتاج إليه فى عمل الدواوين، وهو يعتبر مصدرا مفيدا فى التاريخ والجغرافيا التاريخية، قسمه إلى سبعة أقسام، الأول فى رتب المكاتبات، والثانى فى عادات العهود والتقاليد، والتفاويض، والتواقيع، والمراسيم، والمناشير، والثالث فى نسخ الإيمان، والرابع فى الأمانات، والدفن، والهدن، والمواصفات، والمناسخات، والخامس فى نطاق كل مملكة، وما هو مضاف إليها من المدن، والقلاع والرساتيق، والسادس فى مراكز البريد، والحمام، ومراكز هجن الثلج، والمراكب المسفرة به فى البحر، والمناور، والمحرقات، والسابع فى أوصاف ما تدعو الحاجة إلى وصفه، وهو سبعة فصول[٢].

٢- "النبذة الكافية فى معرفة الكتاب والقافية": منه نسخة فى ليبزج ٤٩٣[٣].

٣- "دمعة الباكى ويقظة الساهر" ذكر الصفدى بأنهما كتابان للعمرى قرأهما عليه بمصر[٤]، وقد ذكرهما ابن تغرى بردى على أنهما كتاب واحد[٥]، وأسماه حاجى خليفه (دمعة الباكى ويقظة الساهى)[٦]، بينما ذكره إسماعيل باشا البغدادى باسم (دمعة الباكى ويقظة الشاكى)[٧].

---

(١) الوافى بالوفيات: ٢٥٣/٨، ٢٥٤.

(٢) الدرر الكامنة: ٣٣١/١-٣٣٣، شذرات الذهب: ١٦٠/٦، الأعلام – الزركلى: ٢٦٨/١.

(٣) الأعلام – خير الدين الزركلى – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٨٦م: ٢٦٨/١، وتاريخ آداب اللغة العربية: ٢٤٤/٣.

(٤) الوافى بالوفيات: ٢٥٥/٨.

(٥) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى – ابن تغرى بردى – تحقيق أحمد يوسف نجاتى – دار الكتب المصرية – القاهرة ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م: ٢٦٥/٢.

(٦) كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون – حاجى خليفة – طبع دار المثنى بغداد : ٧٦١/١.

(٧) هدية العارفين: ١١٠/١.

٤- نفحة الروض، ذكره الصفدى[١]، وابن تغرى بردى[٢]، كما ذكره حاجى خليفة[٣]، وإسماعيل باشا البغدادى فى كتابه أيضاً[٤].

٥- فواصل السمر فى فضائل آل عمر فى أربع مجلدات[٥].

٦- الشتويات: مجموعة من الرسائل المخطوطة[٦].

٧- الدائرة بين مكة والبلاد[٧].

٨- صبابة المشتاق ذكر الصفدى على أنه ديوان كامل فى المدائح النبوية[٨]، وذكره ابن تغرى بردى وابن شاكر الكتبى على أنه فى مجلد واحد[٩]، وأشار الزركلى على أنه فى أربع مجلدات[١٠].

٩- سفرة السفرة[١١].

١٠- الدعوة المستجابة[١٢].

١١- ذهبية العصر، ويتناول شعراء المشرق والمغرب وأخبارهم من أهل المائة الثامنة كاليتيمة[١٣].

١٢- تذكرة الخاطر[١٤].

١٣- ممالك عباد الصليب، وقد ذكر الزركلى فى الأعلام أنه مطبوع[١٥]، وذكره جرجى زيدان فى

---

(١) الوافى بالوفيات: ٢٥٥/٨.

(٢) المنهل الصافى: ٢٦٥/٢.

(٣) كشف الظنون: ١٩٦٨/٢.

(٤) هدية العارفين: ١١٠/٢.

(٥) الوافى بالوفيات: ٢٥٥/٨، المنهل الصافى: ٢٦٥/٢، شذرات الذهب: ١٦٠/٦، هدية العارفين: ١١٠/٢.

(٦) الأعلام للزركلى: ٢٦٨/١، تاريخ آداب اللغة العربية: ٢٤٤/٣.

(٧) الأعلام – الزركلى: ٢٦٨/١.

(٨) الوافى بالوفيات: ٢٥٥/٨.

(٩) المنهل الصافى: ٢٦٥/٢، شذرات الذهب: ١٦٠/٦.

(١٠) الأعلام – الزركلى: ٢٦٨/١.

(١١) الوافى بالوفيات: ٢٥٥/٨، فوات الوفيات: ١٥٧/١-١٦١، المنهل الصافى (سفرة السفر): ٢٦٥/٢، كشف الظنون (سفرة السافر): ٩٩٢/٢، هدية العارفين (سفرة السافر ويقظة المسافر) : ١١٠/١.

(١٢) الوافى بالوفيات: ٢٥٥/٨، النجوم الزاهرة: ٢٣٤/١٠، ٢٣٥.
وكشف الظنون: ٧٥٦/١، هدية العارفين: ١١٠/١.

(١٣) كشف الظنون: ٨٢٩/١، هدية العارفين: ١١٠/١.

(١٤) المصدر نفسه: ٣٨٥/١، هدية العارفين: ١١٠/١.

(١٥) الأعلام – للزركلى: ٢٦٨/١.

تاريخ آداب اللغة العربية وقال: "وصف فيه ملوك الأفرنج فى عصره، روى ذلك عن بلبان الجنوى أحد مماليك بهادر المعزى، فوصف ملك فرنسا، وملك ألمانيا، وأحوالهما السياسية والاجتماعية، وفعل نحو ذلك فى البنادقة، والإيطاليين، وأهل جنوه، وبين علائقهم بالمسلمين. والكتاب طبع فى رومية سنة ١٨٨٣. ومع ترجمة إيطالية لامارى"[١].

١٤- مختصر قلائد العقيان وهو مخطوط[٢]، وذكر جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية أن الدرر الفوائد فى مختصر قلائد العقيان، ومنه نسخة فى الخزانة التيمورية كتبت سنة ٧٢٠هـ[٣].

١٥- حسن الوفا لمشاهير الخلفا[٤].

١٦- الجواهر الملتقطة، ذكره القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى بقوله: "وهذه نسخة بيعة أنشأها المقر الشهابى بن فضل الله، على ما رأيته فى "الجواهر الملتقطة" المجموعة من كلامه للإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد بن أبى الربيع سليمان المستكفى بالله[٥].

وهكذا رأينا من خلال ما عرضناه لمؤلفاته عن مدى ثقافته الواسعة، وإلمامه بكثير من العلوم والمعارف المختلفة هذا بالإضافة إلى "نظمه لكثير من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت والموشح والبليق. وأنشأ كثيراً من التقاليد والمناشير والتواقيع ومكاتبات الملوك وغير ذلك[٦].

ويذكر الصفدى أن له شعراً كثيراً لكنه وسط، كما أن له تصانيف كثيرة أدبية وباعاً طويلاً فى الصناعتين وبراعة فى البلاغتين[٧].

وسوف نعرض لنماذج من شعره وبخاصة الدوبيت والموشح والبليق الذى تألق فيه ابن العمرى كثيراً عندما تناول المادة الأدبية والعلمية فى مسالك الأبصار.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية، ٢٤٤/٣.

(٢) الأعلام – للزركلى: ٢٦٨/١.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية: ٢٤٤/٣.

(٤) كشف الظنون: ٦٦٨/١، هدية العارفين: ١١٠/١.

(٥) صبح الأعشى: ٣٢٠/٩.

(٦) فوات الوفيات – لابن شاكر الكتبى – تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت – لبنان ١٩٧٣م: ١٥٧/١-١٦١، الوافى بالوفيات: ٢٥٥/٨.

(٧) الدرر الكامنة: ٣٣١/١-٣٣٣.

تاريخ آداب اللغة العربية وقال: "وصف فيه ملوك الأفرنج فى عصره، روى ذلك عن بلبان الجنوى أحد مماليك بهادر المعزى، فوصف ملك فرنسا، وملك ألمانيا، وأحوالهما السياسية والاجتماعية، وفعل نحو ذلك فى البنادقة، والإيطاليين، وأهل جنوه، وبين علائقهم بالمسلمين. والكتاب طبع فى رومية سنة ١٨٨٣. ومع ترجمة إيطالية لامارى"[١].

١٤- مختصر قلائد العقيان وهو مخطوط[٢]، وذكر جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية أن الدرر الفوائد فى مختصر قلائد العقيان، ومنه نسخة فى الخزانة التيمورية كتبت سنة ٧٢٠هـ[٣].

١٥- حسن الوفا لمشاهير الخلفا[٤].

١٦- الجواهر الملتقطة، ذكره القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى بقوله: "وهذه نسخة بيعة أنشأها المقر الشهابى بن فضل الله، على ما رأيته فى "الجواهر الملتقطة" المجموعة من كلامه للإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد بن أبى الربيع سليمان المستكفى بالله[٥].

وهكذا رأينا من خلال ما عرضناه لمؤلفاته عن مدى ثقافته الواسعة، وإلمامه بكثير من العلوم والمعارف المختلفة هذا بالإضافة إلى "نظمه لكثير من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت والموشح والبليق. وأنشأ كثيراً من التقاليد والمناشير والتواقيع ومكاتبات الملوك وغير ذلك[٦].

ويذكر الصفدى أن له شعراً كثيراً لكنه وسط، كما أن له تصانيف كثيرة أدبية وباعاً طويلاً فى الصناعتين وبراعة فى البلاغتين[٧].

وسوف نعرض لنماذج من شعره وبخاصة الدوبيت والموشح والبليق الذى تألق فيه ابن العمرى كثيراً عندما تناول المادة الأدبية والعلمية فى مسالك الأبصار.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية، ٢٤٤/٣.

(٢) الأعلام – للزركلى: ٢٦٨/١.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية: ٢٤٤/٣.

(٤) كشف الظنون: ٦٦٨/١، هدية العارفين: ١١٠/١.

(٥) صبح الأعشى: ٣٢٠/٩.

(٦) فوات الوفيات – لابن شاكر الكتبى – تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت – لبنان ١٩٧٣م: ١٥٧/١-١٦١، الوافى بالوفيات: ٢٥٥/٨.

(٧) الدرر الكامنة: ٣٣١/١-٣٣٣.

الباب الثاني

كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

أهميته ومميزاته، ومنهجه، ومصادره

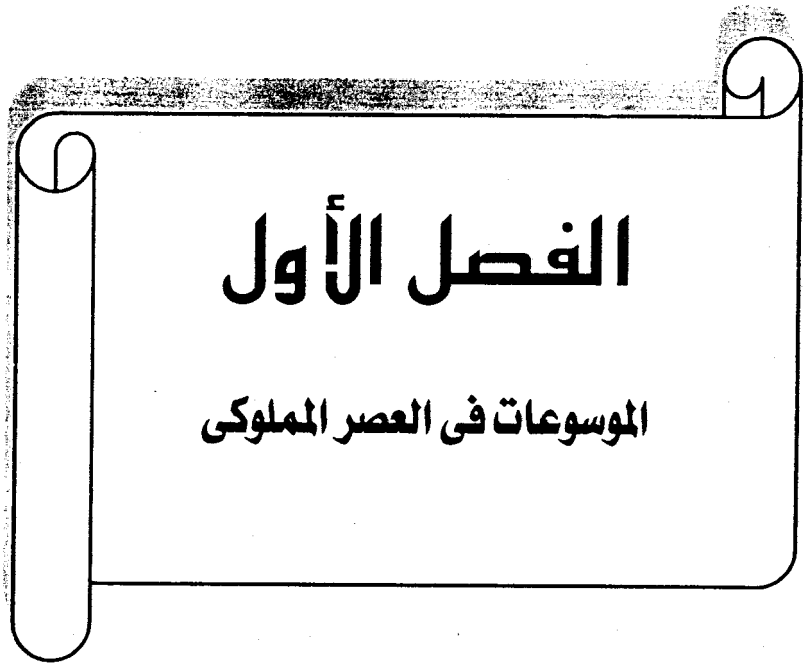

الفصل الأول

الموسوعات فى العصر المملوكى

مما لاشك فيه أن من أبرز سمات ذلك العصر، هو التأليف الموسوعى المتخصص الذى يعود جذوره إلى المنهج التجميعى الذى يقوم على أساس تجميع آراء السابقين، وتدوينها، وتبويبها فى مؤلف واحد، وقد اشتهر العصر المملوكى بإحياء التراث وإعادة تدوينه، وقد بذل علماؤها جهودا كبيرة فى سبيل ذلك لما لهذا العصر من طبيعة خاصة، فهو غنى بثروته العلمية والأدبية التى شملت فنونا عديدة فى مجال الثقافة والعلم والمعرفة الإنسانية.

هذا فضلا عن أن حركة التأليف والتصنيف لم تكن حدثا عابرا فى تاريخ الدولة المملوكية.. بل هى وليدة جذور عريقة ودوافع كبرى أدت إلى هذا الثراء فى حقول التأليف والتصنيف .. فأما الجذور فهى ولاشك: السياسة العمرانية والتعليمية التى اتبعها سلاطين بنى أيوب طوال حكمهم، وحسن التربية التى أولوها لمماليكهم فى مختلف الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعلمية[1].

أما الدوافع فيردها بعضهم إلى نوعين داخلى وخارجى، تمثل الدافع الداخلى فى شعور المفكر المملوكى بأنه "وريث ثقافة واسعة ضخمة تعاودت عليها الأحداث، وأخذت تنتابها المحن. فسيل المغول الجارف يزحف كالجراد من الشرق، يلتهم كل شئ، ويهدم ويدمر، والظلام التتارى يكتسح النور الإسلامى ويكسف شمسه، وتمثل الدافع الخارجى بتلبية رغبات السلاطين والأمراء بتأليف الكتب ووضع الدواوين والمصنفات العلمية، إما سعيا للشهرة أو تحقيقا لثروة أو جاه"[2].

فالموسوعة ما هى إلا "دوائر معارف واسعة الآفاق مترامية الأطراف، يحتوى كل منها على أبواب شتى وفصول مختلفة ذات فروع لا عدد لها، تناولت شتاتا من علوم ومعارف ما بين تقويم وتاريخ وأدب وقصص وغير ذلك"[3].

فالمؤلف يميل إلى جمع المعلومات المختلفة والحقائق المشتتة، والنصوص المبعثرة التى تجعلها جامعة، وتربط بينها فكرة موحدة، فينقب عليها المؤلف، ويفتش عنها فى حنايا مظانها، وينزعها من مكانها الذى ربما تكون غريبة فى إقامتها لديه، ثم تحشد هذه المعلومات أو النصوص تحت راية فكرتها المشتركة، ويعمل المؤلف جهده فى التأليف بينها، وربط بعضها بالبعض الآخر، وإحكام الصلة بينها حتى تتوثق عراها، وتبدو مجموعة ضخمة مترامية المفردات، متماسكة الحلقات، مسبوكة فى قالب تأليفى منظم متناسق، فيه ربط وتقسيم وتقديم وتأخير حسب أهمية النص مثلا[4].

---

(١) آفاق الشعر العربى فى العصر المملوكى – د. ياسين الأيوبى – جروس برس. طرابلس – لبنان، ١٩٩٥م: ص٧٤.
(٢) المرجع نفسه: ص٧٥.
(٣) عصر سلاطين المماليك: ٣٤٣/٣.
(٤) المرجع نفسه: ٣٤٢/٦.

ولعل السبب فى ظهور هذه الموسوعات فى ذلك العصر يرجع إلى "سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ فى أيدى التتار الذين حولوا بغداد العامرة إلى منطقة خربة لا يسكنها إلا البوم والغربان، وقضوا على مكتباتها الزاخرة بالكتب والمؤلفات، فألقوها فى نهر دجلة، وأحرقوا ما بقى منها، وعندئذ فتحت مصر أبوابها للاجئين إليها من العلماء والأدباء، فكثرت الرحلة إلى مصر، واتجهوا بعد أن شعروا بالأمان فى هذه الديار إلى جمع المواد التى تتألف منها هذه الثقافة فى كتب كثيرة على شكل موسوعات لحفظها من الضياع والاندثار"[1].

وكان هناك باعث آخر على تأليف الموسوعات، وهذا الباعث هو ديوان الإنشاء، والاهتمام به فى الواقع هو الذى شجع العلماء والأدباء على ذلك الاتجاه[2].

وإذا كان الباحثون المحدثون العرب يرون أن التأليف الموسوعى جاء نتيجة عوامل عامة شملت المنطقة كلها، وأهمها القضاء على الخلافة العباسية، وإغراق الكتب فى نهر دجلة، فإن المستشرق الروسى كراتشكوفسكى، يرى أن السبب فى نشأة هذه الموسوعات وانتشارها، يرجع إلى ظروف البيئة المصرية، ولا يرجع إلى ظروف خارجة عن نطاق هذه البيئة، فيقول: "من وجهة نظر التاريخ الأدبى فإن الموسوعات تنتمى إلى طراز مصرى صرف من المؤلفات الوصفية التى وضعها عمال وعلماء حكومة عصر المماليك.. وكنمط أدبى فإن هذه الموسوعات وليدة تاريخ طويل معقد... وعلى الرغم من أنها عملت أساساً من أجل كتبة الدواوين الذين كانوا زينة الجهاز الكتابى والإدارى لمصر آنذاك إلا أن جميع المثقفين قد اهتموا بمطالعتها، مما جعل مؤلفيها يولون اهتماما كبيرا بالأسلوب الأدبى"[3].

وقد كانت الظروف مهيأة لبروز هذه الموسوعات، وذلك لأن العصر العباسى كان قد انتهى بعد أن برزت فيه نزعة التخصص، فوفرت المؤلفات كل منها فى علم أو فى فن. وجاء العصر المملوكى على إثره، وشغف الناس بحفظ التراث القديم حرصا عليه، وإبقاء له، فجد العلماء فى جمعه وتنسيقه فى صعيد واحد، فنتجت الموسوعات، وظهرت فى كل علم وفى كل فن[4].

ولهذا يحمد لعلماء العصر المملوكى أنهم اهتموا بالتأليف الموسوعى الذى نضج وازدهر حيث

---

(١) مناهج التأليف عند العرب – د. مصطفى الشكعة – قسم الأدب – طبع بيروت، ١٩٧٤م: ص٧٥٧، ٧٥٨.

(٢) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول – د. عبد اللطيف حمزة: ص٣١٥، ٣١٦.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى – كراتشكوفسكى، ترجمة صلاح الدين هاشم – طبع جامعة الدول العربية – مصر ١٩٦٣م: ١/٤٠٥.

(٤) عصر سلاطين المماليك: ٧/٢٦١.

عكف العلماء فيه على التدوين فى شتى العلوم والمعارف، ولم يقنع أحدهم بأن ينسب إليه كتاب، بل تطاولت هممهم إلى أن يخلقوا تراثاً واسعاً متعدد الأغراض والموضوعات.

ويظهر أنه على الرغم من أن الموسوعات قد "ظهرت متتابعة متسلسلة يلاحق بعضها بعضاً، وتتابع مؤلفوها على مسرى الزمان تتابعاً متصل الحلقات، قصير الفواصل الزمنية"[١]. فإن العصر المملوكى يتميز بموسوعاته المتخصصة التى انفرد بها مؤلفو ذلك العصر، وهذا ما أكد عليه الدكتور مصطفى الشكعة بقوله: "إن كتب العصر المملوكى يغنى الواحد منها عن مائة كتاب"[٢].

ولعل السبب فى وفرة الموسوعات فى ذلك العصر إنما يرجع إلى أنها "نشأت فى بيئة خصبة مستنيرة غير جامدة ولا متخلفة، وأن فترة تأليفها فترة ازدهار عقلى وتألق حضارى فى مختلف فروع الآداب وجوانب المعرفة الإنسانية"[٣].

والموسوعات - على وجه الإجمال - نوعان: نوع تناول علوماً شتى وفنوناً مختلفة كالتقويم والأدب والتاريخ والقصص والشعر والنثر، ومن أمثلته البارزة: نهاية الأرب للنويرى، وصبح الأعشى للقلقشندى، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى، ونوع لم يتناول إلا علماً واحداً بذاته، ولا تكاد تطلب علماً من العلوم الهامة التى اشتغل بها أبناء العصر إلا وفيه موسوعات عدة"[٤].

ويعد كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويرى أول موسوعات ذلك العصر، وهو كتاب ضخم فى فنون الأدب، بالإضافة إلى علوم أخرى كالفلك والجغرافية والطب والسياسة والاجتماع والتقويم والتاريخ والقصص إلى غير ذلك من العلوم والفنون المختلفة، وقد بلغ الكتاب أكثر من ثلاثين مجلداً، قسمه النويرى إلى خمسة فنون، وكل فن إلى خمسة أبواب: "فالفن الأول فى السماء والأرض، والفن الثانى فى الإنسان وطبائعه، وأعضائه وعواطفه...، والفن الثالث عن الحيوان الصامت بأنواعه المختلفة والصيد وآلاته وهو علم الحيوان بفروعه، والفن الرابع: فى النبات على اختلاف أشكاله وأقداره وأنواع الطيب وغيرها وهو علم النبات بفروعه، والفن الخامس فى التاريخ وهو أكبرها كلها يبدأ بالخلق وسائر الأنبياء إلى عرب الجاهلية، فالملة الإسلامية من ظهور الإسلام إلى الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين والعلويين، ودول ملوك الإسلام"[٥].

---

(١) مناهج التأليف عند العرب: ص٧٥٨.

(٢) المرجع نفسه: ص٧٣٢.

(٣) المرجع نفسه: ص٧٦٠.

(٤) عصر سلاطين المماليك: ٢٦١/٧.

(٥) كشف الظنون: ١٩٨٥/٢، ١٩٨٦، تاريخ آداب اللغة العربية: ٢٤١/٣، ٢٤٢.

ثم تتالت الموسوعات الأخرى فى العصر المملوكى، ولعل من أهمها أيضا كتاب "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" لأبى العباس أحمد بن فضل الله العمرى، وهو يعد بحق من أهم الموسوعات فى تلك الحقبة الذى هو موضوع البحث.

ومن الكتب الموسوعية المتخصصة أيضا فى العصر المملوكى كتاب "صبح الأعشى فى صناعة الإنشا" لأبى العباس أحمد بن عبد الله القلقشندى، وقد اشتمل الكتاب على مادة علمية غزيرة فى شتى العلوم والمعارف الإنسانية، بل يعد د . رواد فن الكتابة الإنشائية وأما مادة الكتاب نفسه فقد جعلها القلقشندى فى مقدمة، وعشر مقالات وخاتمة: "ففى المقدمة ذكر فضل الكتابة ومدلولها، وفى الكتاب وآدابهم وصفاتهم، والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه وترتيبه، ووظائف أصحابه وما يحتاج إليه الكاتب من المعارف والعلوم الأدبية والتاريخية والاجتماعية والشرعية والطبيعية، أما المقالات الأخرى فقد تحدث فى إحداها عما يحتاج إليه الكاتب فى النحو والصرف، والبديع، والبيان، وأشعار العرب، وأخبارهم، وأنسابهم، والخط، ومعرفة المداد والكاغد، وأنواع الأقلام، ومقالة فى المسالك والممالك، وهو علم تقويم البلدان مفصلا بما ينطوى عليه فى وصف الممالك، سياسيا وجغرافيا بمصر والشام وفارس وغيرها. ومقالة فى شروط الكاتبات باعتبار المراتب والولايات من الألقاب والكنى، وقطع الورق وأشكالها، ومقالة فى المكتبات ومقدماتها، ومصطلحاتها الدائرة بين كتاب الإسلام من الصدر الأول إلى زمن المؤلف، ومقالة فى الولايات وطبقاتها وما بلغ من التفاوت بينها فى الرتب، والبيعات ومعناها وأنواعها، ومقالة فى الوصايا الدينية والمسامحات والاصطلاحات وتحويل السنين والتذاكر، وأخرى فى الإيمان وما يتعلق منها بالخلفاء والملوك، ومقالة فى عقد الصلح والنصوص الواردة على ذلك، وأخرى فى فنون من الكتابة يتداولها الكتاب ويتنافسون فيها. وجاءت الخاتمة فى أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير الكتابة: كالبريد وتاريخه فى الجاهلية والإسلام، وحمام الرسائل وأبراجه والمناور والحراقات. فهو بحق خزانة علم وأدب لا مثيل لها"[1].

وتتميز موسوعة القلقشندى بدقة التبويب، ووضوح الهدف، واشتمالها على عدد من الوثائق الأصلية، فهى مصدر هام فى التاريخ، والإدارة، والحياة الاجتماعية، سواء للعالم الإسلامى، أو الأقطار المتصلة به فى أوائل القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر الميلادى[2].

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية – جرجى زيدان : ١٤٥/٣، ١٤٦، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول: ص٣٣٠-٣٣٢.

(٢) مسالك الأبصار: د. محمد سالم العوفى: ص٤٦.

وهناك موسوعات أخرى كثيرة شملت مختلف فروع الآداب وجوانب المعرفة الإنسانية، وهى لا تقل أهمية عن سابقيها، نذكر منها على سبيل المثال:

فى التاريخ:

١- كتاب *"الوافى بالوفيات"* للصفدى وهو معجم للتراجم، ولعله أكبر المعاجم التاريخية المعروفة من نوعه، يدخل فى نحو خمسين مجلداً، جمع فيه تراجم الأعيان، ونجباء الزمان ممن وقع عليه اختياره. فلم يغادر أحداً من أعيان الصحافة والتابعين، والملوك والأمراء، والقضاء والقراء، والمحدثين والفقهاء، والمشايخ والصلحاء، والأولياء، والنحاة والأدباء والشعراء، والأطباء والحكماء، وأصحاب النحل والبدع والآراء، وأعيان كل فن ممن اشتهر إلا ذكره. وذكر كل من فتح فتحاً يسره، أو خيراً قرره، أو جوداً أرسله، أو رأياً أعمله، أو حسنة أسداها، أو سيئة أبداها، أو بدعة سنها وزخرفها، أو كتاباً وضعه، أو تأليفاً جمعه، أو شعراً نظمه، أو نثراً حكمه، ورتبه على أحرف الهجاء لكنه بدأ بالمحمدين، ويأتى فى آخر ترجمة كل اسم بأسماء الذين اشتهروا بذلك الاسم، ولهم أسماء أخرى. فيشير إلى أماكن تراجمهم من الكتاب وبأى اسم ترجمهم فيه[١].

٢- كتاب *"النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة"* لابن تغرى بردى، ويعد من أهم مؤلفاته، ويبحث فى تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى الدولة الأشرفية سنة ٨٥٧ فى عدة مجلدات مع استطرادات كثيرة لأخبار البلاد المجاورة، مرتب على السنين، وفى آخر كل سنة تراجم من مات فيها، وزيادة النيل ونقصانه[٢].

٣- خطط المقريزى، والمسمى *"بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"* ويتناول أخبار الديار المصرية وأحوال سكانها، فإذا وصف أثراً أو بناءً أو شارعاً أو بلداً أو جامعاً أو سوراً أفاض فى تاريخه وتاريخ مؤسسه، وما تَوالَى عليه فى الأحوال التاريخية أو تخلله من النكات الاجتماعية، أو تعلق به من الأحوال الأخرى، فهو خزانة علم وتاريخ وجغرافية ومدنية، وفلسفة واجتماع، حتى الشرع، فإنك تجد منه أشياء مهمة بينها فصل فى الفرق الإسلامية، وتاريخ تفرقها[٣].

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية: ١٧٥/٣.

(٢) المصدر نفسه/ ١٩٥/٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٩٠/٣.

٤- كتاب *"السلوك لمعرفة دول الملوك"* للمقريزى أيضاً، وهو يبحث فى تاريخ مصر من سنة ٥٧٧-٨٤٤، رتبه على السنين، يذكر حوادث السنة ثم يترجم من مات فيها من الأعيان ترجمة مختصرة[١].

٥- كتاب *"الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع"* لشمس الدين السخاوى، وهو معجم تراجم مشاهير ذلك القرن، ويقع فى خمسة مجلدات[٢].

٦- *"مقدمة ابن خلدون"* وهو بمثابة خزانة علوم، اجتماعية وسياسية، واقتصادية، وأدبية، حيث قسم مقدمته إلى ستة فصول تناول فى الفصل الأول منها قسط العمران من الأرض وما فيها من الأقاليم، والفصل الثانى فى العمران البدوى، والأمم والقبائل، والفصل الثالث فى الدول العامة، والملك والخلافة، والمراتب السلطانية، والفصل الرابع فى البلدان والأمصار وسائر العمران، فى المدن والهياكل ونسبتها إلى الدول، والفصل الخامس فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، والفصل السادس فى العلوم وأصنافها، والتعليم وطرقه وسائر وجوهه[٣].

٧- *"الإصابة فى تمييز الصحابة"* لابن حجر العسقلانى، وهو كتاب مطول فى التراجم مرتب على حروف المعجم، جمع فيه ما فى الاستيعاب وذيله، وأسد الغابة، واستدرك عليها كثيراً فى ثمانية مجلدات ضخمة تتضمن تراجم الصحابة والتابعين، قسمها إلى أربع طبقات: الأولى من وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره. والثانية فى ذكر الصحابة الذين ولدوا فى زمن الرسول، والثالثة فى ذكر المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ولم يرد أنهم اجتمعوا بالرسول. والرابعة فيمن ذكر على سبيل الوهم والغلط.. واختص الجزء السابع من الكتاب بالصحابة المعروفين بالكنى، والثامن لأسماء النساء مرتب على حروف المعجم[٤].

٨- *"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"* لابن خلكان، وهو معجم تاريخى، ذخيرة علم وأدب وتاريخ ولغة، جمع فيه زبدة ما ألفه العلماء قبله فى تراجم الرجال، وأضاف إليه ما عرفه هو من معاصريه وحقق ودقق. ونجد فى خلاله كثيراً من دلائل العناية فى الضبط والرواية. تزيد عدد التراجم فيه على ثمانمائة ترجمة. ومن مميزات الكتاب هو تحقيق نسب كل واحد وسنة ولادته

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية: ١٩١/٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٨٣/٣.

(٣) المصدر نفسه: ٢٢٦/٣، ٢٢٧.

(٤) المصدر نفسه: ١٧٩/٣، ١٨٠.

وسنة وفاته، كما يمتاز بتقييده الأعلام بالحركات، وتعريف الأمكنة والأشخاص، مما يفتقر إليه طالب التاريخ[١].

٩- *"البداية والنهاية"* لابن كثير، وهو مطول في التاريخ العام في عشرة مجلدات اعتمد فـي تأليفه على النص من الكتاب والسنة، وميز بين الصحيح السقيم من الخبر الإسـرائيلي، ورتـب مـا بعـد الهجرة على السنوات إلى آخر عصره. وهو ممـا جمـع بـين الحـوادث والوفيـات. وأجـود مـا فيـه السيرة النبوية عول في كثير منه على تاريخ البرزاني، وقد لخصه كثيرون وذيلوه[٢].

في الفقه:

١- *"طبقات الشافعية الكبرى"* للسبكي، ويشتمل على تراجم الفقهاء الشافعية ممن جالسوا الشافعي ومن جاء بعدهم، وكل طبقة مرتبة على الهجاء، ويقع في ستة مجلدات، وفيها فوائد مهمـة فـي التاريخ والحديث[٣].

٢- كتاب *"فتاوى ابن تيمية"* وهو في فقه الحنابلة، وفيـها مـا أفتـى به، وعليـه بنيـت شـهرة ابـن تيمية، ويقع في خمسة مجلدات[٤].

في الحديث:

١- *"فتح الباري في شرح صحيح البخاري"* لابن حجر العسقلاني، وهو كتاب مطول في الحديـث، طبع في مصر وغيرها، ويقع في أربعة عشر مجلدا. [٥].

٢- *"إرشاد الشاري إلى شرح صحيح البخـاري"* للقسـطلاني القتيبـي المصـري، وهـو مـن المحدثـين المشاهير، ويقع كتابه في عشرة مجلدات[٦].

في التفسير:

"الدر المنثور في التفسير بالمأثور" لجلال الدين السيوطي، وهو في تفسير القـرآن، طبـع

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية: ١٧٢/٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢٠٨/٣.

(٣) المصدر نفسه: -٢٦١/٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢٦٣/٣.

(٥) المصدر نفسه: ١٨٢/٣.

(٦) المصدر نفسه: ١٧٠/٣.

بمصر، ويقع فى ستة مجلدات[١].

فى النحو:

١- *"الأشباه والنظائر النحوية"* لجلال الدين السيوطى، رتبه مؤلفه على سبعة فنون، كل فن له مقدمة مستقلة، كأنه سبعة كتب، ويقع فى أربعة مجلدات[٢].

٢- *"مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب"* فى النحو لابن هشام، ومنه نسخ فى أكثر مكاتب أوربا ودار الكتب المصرية، وله شروح عدة للدماميني والأشمونى والدسوقى، وأكثرها مطبوع ومشهور[٣].

فى اللغة:

١- *"لسان العرب"* لابن منظور، وهو معجم مطول مرتب على أواخر الكلم، مثل صحاح الجوهرى، وهو من أوثق المعاجم العربية، جمع فيه تهذيب الأزهرى، ومحكم ابن سيدة، والصحاح، وحواشى ابن برى، ونهاية ابن الأثير، وقد شرح ما آتى به فى الشواهد من آيات وأحاديث وأشعار، طبع فى مصر، ويقع فى عشرين مجلداً[٤].

فى الأدب:

١- *"المستطرف فى كل فن مستظرف"* للأبشيهى، وهو من الموسوعات الأدبية، طبع بمصر وغيرها مرارا فى مجلدين كبيرين، يشتمل على ٤٨ بابا فى معانى الإسلام والعقل والذكاء والقرآن وفضله، والعلم والأدب، والآداب والحكم، والأمثال السائرة والبيان والبلاغة، والبلغاء والفصحاء، والأجوبة المسكتة ونحو ذلك من الآداب والأخلاق، وفى العدل والإحسان، والمعاشرة والمودة، والمفخر والشرف... وغير ذلك، وفيه فوائد كثيرة تاريخية واجتماعية وأدبية وسياسية وغيرها[٥].

٢- *"خزانة الأدب وغاية الأرب"* لابن حجة الحموى، وهى بديعية نظمها فى مدح الرسول على طراز البردة، وهى تشمل كل أنواع البديع، وقد شرحها فى الكتاب شرحا وافيا، وطبع الكتاب

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية: ٢٤٩/٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٨/٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٥٤/٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٥٣/٣.

(٥) المصدر نفسه: ١٤٨/٣.

مراراً بمصر ومنها نسخة خطية بدار الكتب المصرية فى ٦٥٦ صفحة كبيرة[1].

والشئ الذى يمكن أن نستخلصه من موسوعات ذلك العصر هو أنها موسوعات متخصصة فى نظر مؤلفيها، وليست موضوعات جامعة أو مكررة كما يتصورها بعض الدارسين فى عصرنا، بل كان كل مؤلف يرى أنه ينفرد بموسوعته عن غيره، فتكاثرت الموسوعات والكتب الجامعة للموضوعات فى هذا العصر حتى يصح أن يسمى عصر الموسوعات والمجاميع؛ حيث عكف فيه العلماء على التدوين فى شتى العلوم والمعارف المختلفة، ولم يقنع أحدهم بأن ينسب إليه كتاب، بل تطاولت هممهم إلى أن يخلقوا تراثاً واسعاً متعدد الأغراض، والموضوعات بعد أن تعددت المعارف الإنسانية وتنوعت وتشعبت، واستطاعوا أن يستغلوا الوسط العلمى السائد فى ذلك الوقت ليقدموا لنا هذه الموسوعات التى تشهد بحق على عبقريتهم الفذة بقدر ما كانت شاهدة أيضاً على عبقرية البيئة التى عاشوا فيها والظروف التى أحاطت بهم.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية: ٣/١٣٥، ١٣٦.

الفصل الثانى

سبب تأليف الكتاب وتاريخ تأليفه

سبب تأليف الكتاب وتاريخ تأليفه:

يقع كتاب "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمرى فى أكثر من عشرين مجلدا كبيرا ويوجد بدار الكتب المصرية، منه نسخة كاملة مصورة بالتصوير الشمسى استطاع معها أحمد زكى باشا، وقد تم طبع الجزء الأول منه، كما تم طبع جزء آخر من الكتاب فى مملكة الهند والسند بدراسة وتحقيق الدكتور محمد سالم بن شديد العوفى، وطبع أيضا القسم الخاص بمملكة اليمن بتحقيق أيمن فؤاد السيد، وطبع كذلك الجزء الخاص بقبائل العرب فى القرنين السابع والثامن الهجريين بدراسة وتحقيق دورويتاكرافولسكى.

ويذكر لنا ابن النديم أن أبا العباس جعفر بن أحمد الروزى المتوفى نحو سنة ٢٧٤هـ، هو أول من ألف فى المسالك والممالك كتابا، ولم يتمه. ونشرت معظم كتب المسالك التى وضعت فى القرنين الثالث والرابع للهجرة، وهى مؤلفات ابن خرداذبة، وقدامة بن جعفر، واليعقوبى، وابن الفقيه الهمدانى، وابن رستة، والاصطخرى والمسعودى، وابن حوقل، والمقدسى. وفى القرن الخامس وضع أحد الجغرافيين الأندلسيين هو أبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٩٠هـ كتابا فى "المسالك والممالك"، نقل منه العمرى بعض نصوص فى كتابه[١].

وكتاب "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" موسوعة كبيرة شملت علوما شتى وفنونا مختلفة كالتقويم والأدب والتاريخ والجغرافيا والقصص والشعر والنثر، وقد وصف الصفدى الكتاب بقوله: "هو كتاب حافل ما أعلم أن لأحد مثله"[٢].

ويذكره ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب "هو كتاب جليل ما صنف مثله"[٣]. وعلى الرغم من أهميته لم تقم أى هيئة علمية بنشره ناهيك عما صدر منه من أجزاء محدودة متفرقة بجهود فردية.

ألف العمرى، كتابه "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" كى يصبح مرجعا لكتبة الدواوين، عكس فيه ثقافته، وخبرته فى مجال الكتابة والإنشاء، وما أتاحه له عمله فى ديوان الإنشاء، من إطلاع واسع على أسرار الدولة الملوكية، وأحوال الممالك الإسلامية الأخرى، وهو وإن اتفق هدف

---

(١) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (القسم الخاص بمملكة اليمن) – ابن فضل الله العمرى – تحقيق أيمن فؤاد السيد – دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٧٤م : ص١٢.

(٢) الوافى بالوفيات – الصفدى: ٢٥٥/٨، فوات الوفيات: ١٥٧/١-١٦١.

(٣) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب – لابن العماد الحنبلي – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع : ١٦٠/٦.

تأليفه مع كتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) إلا أنه اختلف عنه بغزارة معلوماته، وبأسلوبه الأدبى الذى كتب به، وهى موسوعة من الممكن أن تستفيد منها طبقة عريضة من القراء، غير كتبة الدواوين، نظراً لما تضمنته من معلومات أدبية، وتاريخية، وجغرافية واسعة، وقد كان العمرى مدركاً لمتطلبات عصره، عندما ضمن موسوعته عدداً ليس قليلاً من المنتخبات الشعرية، التى كانت لا تخلو منها بعض المعاجم الجغرافية الأخرى[1].

وهكذا وجدنا أنها موسوعة عظيمة أفادت الناس بقدر ما يأنسون به ويستمتعون بقراءته، فهى إذن جديرة بالبحث والدراسة.

وإذا أمكننا أن نفسر سبب اختياره عنوان "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" لموسوعته فإننا نقول " إنه قد يعبر عن انتمائه إلى التقليد الجغرافى الإسلامى، المعروف باسم (المسالك والممالك)، الذى بدأ تدوينه فى القرن الثالث الهجرى، وبلغ قمة نشاطه، وازدهاره فى القرنين الرابع، والخامس الهجريين أيضاً كما استطاع أن يعبر عن خاصية التأليف فى عصره، عندما أضاف بعداً جديداً إلى ذلك النمط الجغرافى الموروث، وهو اهتمامه بالإنسان ترجمة وتاريخاً، وهو اهتمام يعبر عن إحساس العمرى بفعالية الأفراد فى التاريخ إثر الاحتكاك بين المماليك والمغول، لذا لم تقتصر تراجمه عن العلماء فقط، بل شملت الأفراد والسلاطين، ورجال الحرب والدولة فى عصره"[2].

وقد شرح لنا العمرى فى مقدمة كتابه الهدف من تأليفه له هو "إثبات نبذة دالة على المقصود فى ذكر الأرض وما فيه ومن فيها: الأظهر فالأظهر، والأشهر فالأشهر؛ وما لم أجد بداً من ذكره فى ذلك ومثله، وحالة كل مملكة، وما هى عليه، هى وأهلها فى وقتنا هذا، مما ضمه نطاق تلك المملكة، واجتمع عليه طرفا تلك الدائرة الأقرب إلى الأفهام البعيدة غالب ما هى عليه أم كل مملكة من المصطلح والمعاملات، ويوجد فيها غالباً: ليبصر أهل كل قطر القطر الآخر وبينته بالتصوير: ليعرف كيف هو، كأنه قدام عيونهم بالمشاهدة والعيان. مما اعتمدت فى ذلك على تحقيق معرفتى له، فيما رأيته بالمشاهدة؛ وفيما لا أراه بالنقل ممن يعرف أحوال المملكة المنقول عنه أخبارها، مما رأه بعينه أو سمعه من الثقات بإذنه"[3].

وكان العمرى دقيقاً فى نقله "فلم ينقل إلا عن أعيان الثقات، من ذوى التدقيق فى النظر،

---

(١) مسالك الأبصار – محمد سالم بن شديد العوفى: ص٣٩، ٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٠.

(٣) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار – ابن فضل الله العمرى – تحقيق أحمد زكى باشا – القاهرة ١٩٢٤م: ٢/١ .

والتحقيق للرواية، واستكثرت ما أمكننى من السؤال عن كل مملكة، لآمن من تغفل الغفلاء، وتخيل الجهالات الضالة، وتحريف الأفهام الفاسدة"[١].

تاريخ تأليف الكتاب:

شرع العمرى فى تأليف الكتاب أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وقصد منه وضع موسوعة تاريخية جغرافية جامعة لا تقوم على أساس علمى صرف بل على أساس أدبى عريض[٢].

ومن المعروف أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد تبوأ عرش الديار المصرية والشامية للمرة الثالثة فى أواخر رمضان سنة (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) وظل يحكم إلى أن توفى سنة ٧٤١هـ[٣].

ويمكن القول إن الموسوعة حصيلة جمع استمرت قرابة عشر سنوات، ونيِّف، وقد توصلت الباحثة (دوروتيا كرافولسكى) خلال دراستها، وتحقيقها للجزء الخاص بقبائل العرب فى القرنين السابع والثامن الهجريين، من مسالك الأبصار إلى أن العمرى، تجمعت لديه مادة ضخمة من المعلومات، لم تسمح له بالانتظار حتى ينتهى من عملية جمعها، فكان لابد له أن يجمع، ويكتب فى نفس الوقت، إلا أنه توفى سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) قبل إتمامه للخطة التى اعتمدها لمؤلَّفه، بدليل عدم إتمامه، الفصل الخاص بقبائل العرب، وورود بياضات كثيرة، لم يتمها فى مجلدات المخطوطة السبعة، فى مكتبة أيا صوفيا، وغيرها، ونقص الجزء الخاص بالحجاز، رغم وروده فى الفهرس، الذى عمله فى مقدمة الكتاب، ثم توقفه فى القسم التاريخى إلى سنة (٧٤٤هـ/١٣٤٤م)، وقد توفى بعد هذا التاريخ بقرابة خمس سنوات[٤].

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا : ٢/١ .

(٢) مسالك الأبصار: أيمن فؤاد السيد: ص٢٤.

(٣) النجوم الزاهرة: ٣١٧/٧.

(٤) مسالك الأبصار – محمد سالم بن شديد العوفى: ص٤٢، ٤٣.

الفصل الثالث

خطة الكتاب وأقسامه

خطة الكتاب وأقسامه:

هذه الموسوعة من كتاب "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" هى أهم ما خلفه العمرى من آثار، وهى بحق تعد إحدى مميزات عصره، إذ شملت أبوابا شتى، وفصولا مختلفة تناولت من علوم ومعارف ما بين تقويم وتاريخ وأدب وقصص فهى تشرح أخبار الأمم البائدة والملوك السالفة، والأقاليم وما فيها من ممالك، وما اصطلحت عليه كل مملكة فى معاملتها وجنودها، وطوائف العلماء وذوى الحرف والشعراء والأدباء بها، مع إثبات النصوص الشعرية والنثرية قديمها وحديثها، ولهذا ترى فيه كثيرا من أدب عصره ووقائع أدبه... إلى غير ذلك، ابتدأه بأقاليم المشرق وختمه بنهاية أقاليم المغرب، ورتب ما بعد الهجرة على السنين، وانتهى فيه إلى سنة ٧٤٣هـ.

والمؤلف نقالة جامع لصنوف العلوم وموسوعى، حيث هيأ له عمله الحكومى الإطلاع على الوثائق كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية مما مكنه من إخراج لوحة مفصلة فى وصف العالم المعاصر له[1].

وقد اتبع العمرى فى تأليف موسوعته منهجا علميا بدائيا، إذ لم يقم بزيارة. كثير من البلاد التى تحدث عنها، بل اعتمد فى ذلك على الرحالة الذين وصلوا إلى تلك البلاد، وهم إما فقهاء شعروا بحاجة أهل تلك المناطق لمن يفقههم فى الدين، أو تجارا يجوبون الآفاق ترويجا لتجارتهم، أو مغامرين دفعهم حب الاستطلاع إلى زيارة تلك الأماكن، فوصفوا ما شاهدوه فى تلك البلاد من نشاط سياسى، واجتماعى، واقتصادى، ونقدى، وصفا دقيقا، اطلع عليه العمرى، مدونا فى مؤلفاتهم، وأخذه ممن عاصره منهم مشافهة، وقد بلغ اهتمام العمرى وحذره من صحة ما يدونه، أنه كان إذا أراد وأن يتعرف على أحوال بعض البلاد، طرح السؤال على أكثر من واحد، من أهل تلك البلاد، أو من زارها، فأخذ بما تتفق فيه جميع الأقوال، أو أغلبها، كما كان إذا سأل الرجل احتفظ بإجابته، ثم تركه فترة، وكرر عليه السؤال نفسه، فإن ثبت إلى إجابته الأولى أخذ بها، وإن اختلف تركها[2].

وقد قسم العمرى كتابه إلى قسمين رئيسيين: الأول عن الأرض، وما اشتملت عليه برا وبحرا، والثانى عن سكان الأرض من طوائف الأمم، أما القسم الأول من الكتاب فقد جاء فى ذكر الأرض وما اشتملت عليه برا وبحرا وهو نوعان:

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى – كراتشكوفسكى : ٤١٣/١.

(٢) المصدر نفسه : ٤١٣/١.

النـوع الأول: فى ذكر المسالك.

النوع الثانى: فى ذكر الممالك.

أما القسم الثانى من الكتاب فقد أعده المؤلف فى سكان الأرض من طوائف الأمم وهى أنواع:

"**النـوع الأول**: فى الإنصاف من المشرق والمغرب، وهذا النوع له شـبهان شبه بالقسم الأول بحسب موضوعه وما اندرج معه، وتعلق بذيل المفاخرة بين الجانبين من النبات والمعدن، وله شبه بهذا القسم بحسب ما اندرج فيه من ذكر طوائف العلمـاء الذيـن أعيـان النـاس، وذكر سائر الحيوان إلا أن هذا الشبه أقوى لأن المقصود من المكان ساكنه فألحقناه بهذا القسم.

النوع الثانـى: فى الكلام على الديانات وهى ست نحل وأربع ملل.

النوع الثالث: فى الكلام على طوائف المتدينين.

النوع الرابع: فى ذكر التاريخ وفيه بابان:

الباب الأول: فى ذكر الدول التى كانت قبل الإسلام.

الباب الثانى: فى ذكر الدول الكائنة فى الإسلام"[1].

هذا هو ما اشتمل عليه كتاب "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" من أقسـام حيـث انقسـم إلى قسمين رئيسيين، اشتمل القسم الأول منه على نوعين:

الأول فى ذكر المسالك وفيه خمسة أبواب وهى:

الباب الأول: فى مقدار الأرض وحالها وفيه (ستة فصول):

الفصل الأول: فى كيفية الأرض ومقدارها[2].

الفصل الثانى: فى أسماء الأرض وصفاتها[3].

الفصل الثالث: فى أسماء التراب وصفاته[4].

الفصل الرابع: فى أسماء الغبار وصفاته[5].

---

(١) مسالك الأبصار. أحمد زكى باشا: ١/٩-١٤.

(٢) المصدر نفسه: ١/١٧.

(٣) المصدر نفسه: ١/٣٢.

(٤) المصدر نفسه: ١/٣٧.

(٥) المصدر نفسه: ١/٣٩.

الفصل الخامس: فى أسماء الرمال وصفاتها[١].

الفصل السادس: فى أحوال الأرض[٢].

ويستطرد فى ذلك ذكر الجبال والأنهار والبحيرات والمساجد الثلاثة وما يندرج معها وذكر جملاً من الآثار الجميلة.

الباب الثانى: فى ذكر الأقاليم السبعة وفيه فصول[٣]:

الفصل الأول: فى تقسيم الأقاليم.

الفصل الثانى: فيما وقع فى الأقاليم من المدن والجزائر العامرة براً وبحراً وتصويرها بأشكالها ويتصل بذلك كلام جملى فى أمر مشاهير ممالك عباد الصليب فى البر دون البحر.

الفصل الثالث: فى ذكر أطوال النهار فى كل إقليم.

الباب الثالث: فى البحار وما يتعلق بها وفيه فصول[٤]:

الفصل الأول: فى ذكر البحار.

الفصل الثانى: فى ذكر الرياح.

الفصل الثالث: فى ذكر نبذة من العجائب براً وبحراً[٥].

الباب الرابع: فى القبلة والأدلة عليها وفيه فصول[٦]:

الفصل الأول: فى أقوال الفقهاء.

الفصل الثانى: الاستدلال عليها بالنجوم.

الفصل الثالث: فى الاستدلال عليها بالرياح.

الفصل الرابع: فى الاستدلال عليها بالجبال.

الفصل الخامس: فى الاستدلال عليها بالأنهار.

الفصل السادس: فى قبلة كل أرض.

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٤٠/١.

(٢) المصدر نفسه: ٤٣/١.

(٣) المصدر نفسه: ٩/١، ١٠.

(٤) المصدر نفسه: ١٠/١.

(٥) المصدر نفسه: ١١/١.

(٦) المصدر نفسه: ١٠/١.

وخاتمة الباب: فصل جامع يشتمل على ذكر تداخل الشهور والكواكب الثابتة والسيارة وصورة الأفلاك والقول فى الخسوف والكسوف وما يستطرد فى ذلك ويندرج معه لاستخراج القبلة وما اندرج فى ذلك ويسنه استطراداً يتعلق بعضه ببعض.

الباب الخامس: فى ذكر الطرق وفيه فصلان[1]:

الفصل الأول: فى تعاريج الطريق.

الفصل الثانى: فى سواء الطريق.

أما القسم الثانى فجاء فى ذكر الممالك وجعله فى سكان الأرض وقسمه إلى خمسة عشر باباً وهى[2]:

الباب الأول: فى مملكة الهند والسند.

الباب الثانى: فى ممالك بيت جنكيز خان وفيه فصول:

الفصل الأول: فى الكلام عليها جملياً.

الفصل الثانى: فى مملكة القان الكبير صاحب التحت وهو صاحب الصين والخطا.

الفصل الثالث: فى التورانيين وهم فرقتان:

الفرقة الأولى: فيما وراء النهر.

الفرقة الثانية: فى خوارزم والتيجان.

الفصل الرابع: فى الايرانيين.

الباب الثالث: فى مملكة الجبل وفيه فصول:

الفصل الأول: فى يومن.

الفصل الثانى: فى توليم.

الفصل الثالث: فى كسكر.

الفصل الرابع: فى رشفت.

الباب الرابع: فى مملكة الجبال وفيه فصول:

الفصل الأول: فى الأكراد.

الفصل الثانى: فى اللر.

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ١٠/١.

(٢) المصدر نفسه : ١١/١-١٣.

الفصل الثالث: فى الشول.

الفصل الرابع: فى شنكارة.

الباب الخامس: فى مملكة الأتراك والروم وفيه ستة عشر فصلاً:

الفصل الأول: فى مملكة كزمينان.

الفصل الثانى: فى مملكة طنغرلو.

الفصل الثالث: فى مملكة توازا.

الفصل الرابع: فى مملكة عيدلى.

الفصل الخامس: فى مملكة كصطمونية.

الفصل السادس: فى مملكة قاديا.

الفصل السابع: فى مملكة بروسيا.

الفصل الثامن: فى مملكة اكيرا.

الفصل التاسع: فى مملكة مرمرا.

الفصل العاشر: فى مملكة مغنسيا.

الفصل الحادى عشر: فى مملكة تنيف.

الفصل الثانى عشر: فى مملكة بركى.

الفصل الثالث عشر: فى مملكة فوكه.

الفصل الرابع عشر: فى مملكة إنطاكيا.

الفصل الخامس عشر: فى مملكة قراصار.

الفصل السادس عشر: فى مملكة أزمناك.

الباب السابع: فى مملكة اليمن وفيه فصلان:

الفصل الأول: فيما هو بيد أولاد رسول.

الفصل الثانى: فيما هو بيد الأشراف.

الباب الثامن: فى ممالك المسلمين بالحبشة وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول: فى مملكة أوفات.

الفصل الثانى: فى مملكة دواروا.

الفصل الثالث: في مملكة أرابينى.

الفصل الرابع: فى مملكة هدية.

الفصل الخامس: فى مملكة شرخا.

الفصل السادس: فى مملكة بالى.

الفصل السابع: فى مملكة داره.

الباب التاسع: فى ممالك مسلمى السودان على ضفة النيل الممتد إلى مصر وفيه فصلان:

الفصل الأول: فى مملكة الكانم.

الفصل الثانى: فى النوبة.

الباب العاشر: فى مملكة مالى.

الباب الحادى عشر: فى مملكة جبال البربر.

الباب الثانى عشر: فى مملكة أفريقية.

الباب الثالث عشر: فى مملكة بر العدوة.

الباب الرابع عشر: فى مملكة الأندلس.

الباب الخامس عشر: ذكر العرب الموجودين فى زماننا وأماكنهم ومضارب أخبيتهم ومساكنهم.

ومن الملاحظ هنا أن قسم الممالك عند العمرى الذى جعله فى "سكان الأرض" ومرجع ذلك إلى "سقوط الخلافة الإسلامية واستقلال أغلب ولاياتها، وظهور قوى جديدة على مسرح السياسة الإسلامية ترجع أغلبها إلى أصول غير عربية، وتربطها بدول أوربا والهند والشرق الأقصى روابط سياسية واقتصادية وطيدة، فأمدوا البيئة العربية الإسلامية بالكثير من العادات والتقاليد والنظم المعقدة التى لم يألفها المسلمون العرب من قبل، مما أدى إلى اهتمام المؤرخين وكتاب الدواوين خاصة بوصفها وشرحها"[1].

والواقع أن موسوعة ابن فضل الله العمرى تمثل أهمية كبرى حيث بلغ عدد أجزائها اثنين وثلاثين جزءاً استطاع أحمد زكى باشا أن يجمعها فى نسخة واحدة من مخطوطات متناثرة فى دور المخطوطات المختلفة، وقد لقيت موسوعته اهتماماً كبيراً من الأجيال التى تلته وفى مقدمته صاحب كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندى.

لقد قدم لنا العمرى عرضاً وافياً شاملاً فى موسوعته التاريخية الجغرافية الجامعة لهذا الكون الذى أبدعه الله تعالى ويشير إلى ذلك فى مقدمة كتابه، فيقول: "حيث عُينا التبويب وبيَّنا الترتيب

---

(١) مسالك الأبصار – أيمن فؤاد السيد: ص١٣.

نشرع فى ذكرها باباً باباً إلى انتهاء الأبواب، ونوعاً نوعاً إلى انقضاء الكتاب والله المؤهل فى عمر يوفى بتمامه ويوفر المواد على مدد أقسامه على ما هو أبقى من الابتهال إلى الله فيما هو أهم من التفويض فى الدنيا والآخرة"[1].

والمؤلف - على الرغم - من تقسيمه الشامل وما احتوت عليه موسوعته من علوم ومعارف إلا أنه يخشى النقد مع أنه قد استنفد الطاقة، واستفرغ الجهد بقوله: "إلى من وقف على هذا الكتاب ووقع منه نظرة على خطأ أو صواب أنه يصفح عما جنح فيه القلم إلى الزلل، وتخطى إليه الفكر من الخطر، وبسط العذر لمن لم يجب البلاد ولم يجل فى الآفاق، ولم يتهم فى تهامة، ولا أعرق فى عراق ولا خطب الدأماء، ولا خبط الظلماء، ولا اقتحم لجج البر والبحر ولا تعدى مصر والشام والحجاز، ولا فارق ممالك كان هو وأسلافه فيها تحت قيد القلق والشواغل لما كان يتقلده منهم ابن عن أبيه، وأخ عن أخيه من أعباء الدول وأمور الممالك وأثقال الفكر والمهمات، وشغل الأسماع والأبصار مما يستغرق بعضه الأوقات ويقطع عن الأسباب حتى عن لفظة سؤال ولحظة كتاب"[2].

---

(١) مسالك الأبصار - أحمد زكى باشا: ١٤/١.

(٢) المصدر نفسه: ١٤/١، ١٥.

الفصل الرابع

مميزات الكتاب من النواحى العلمية والأدبية

مميزات الكتاب من النواحى العلمية والأدبية:

تبدو القيمة العلمية لكتاب "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمرى فى أنه أخذ طابع الموسوعات لما حواه من ثروة علمية وأدبية شملت فنونا عديدة فى مجال العلم والثقافة والمعرفة الإنسانية. ولعل ما ساعد مؤلفنا على هذا هو عمله فى ديوان الإنشاء واطلاعه على الوثائق المختلفة بالإضافة إلى البيئة الصالحة التى نشأ فيها وعايشها بل وشارك فيها مما مكنه من إخراج موسوعته بهذا الشكل لتأخذ مكانتها فى عالم الموسوعات العربية.

وبهذه الرؤية يعد كتابه موسوعة جامعة لما يتمتع به من غزارة المادة العلمية والتى منها ما يخص التاريخ والجغرافيا والأدب والتاريخ الطبيعى وغيرها من العلوم والمعارف الإنسانية.

وهذا ما أشار إليه الدكتور مصطفى الشكعة بقوله "إن كتب العصر المملوكى يغنى الواحد منها عن مائة كتاب"[1].

ولقد عمد المؤلف فى خطة كتابه على تقسيمه تقسيما واضحا ورتبها ترتيبا جليا شرع بعد ذلك فى ذكر أبواب كتابه بابا بابا ونوعا نوعا إلى انقضاء الكتاب ملتزما بما جاء فيه من عناوين وموضوعات.

وقارئ الكتاب يلاحظ ذلك جليا حيث جعل القسم الأول فى وصف الأرض، والقسم الثانى فى الكلام عن سكانها، حيث "تحدث فى القسم الأول عن كيفية الأرض ومقدارها وأسمائها وصفاتها، وأسماء التراب وصفاته والغبار والرمال، ووصف أحوال الأرض والجبال والبحيرات والمساجد الثلاثة والآثار القديمة، والأقاليم السبعة والبحار وما يتعلق بها، وما فيها من العجائب، والقبلة والأدلة عليها، وتداخل الشهور والكواكب الثابتة والسيارة، وتحدث عن الأفلاك والكسوف والخسوف، ثم ذكر الطرق والممالك الإسلامية مثل الهند والسند وممالك جنكيز خان والتورانيين والإيرانيين ومملكة الجبال والأتراك والروم ومصر والشام والحجاز والحبشة واليمن والسودان الممتدة على ضفاف النيل إلى مصر. وفى القسم الثانى فاضل بين سكان الشرق وسكان الغرب، وتحدث عن الديانات وعن دول الشرق قبل الإسلام وبعده"[2].

وقد أكد على حسن التنظيم ووضوح التقسيم كراتشكوفسكى بقوله: "إن الترتيب المنطقى

---

(١) مناهج التأليف عند العلماء العرب – د. مصطفى الشكعة: ص٧٣٢.

(٢) عصر سلاطين المماليك: ٣٤٩/٣.

لموضوع الكتاب جعل منه مصدراً حافلاً لدراسة مختلف الموضوعات التاريخية والجغرافية"[١].

ويبدو لنا أن المؤلف كان صادقاً مع نفسه وقارئيه حين أشار فى مقدمة كتابه وهو يتحدث عن القسم الأول عندما تطرق للحديث عن الممالك ذكر بأنه لم يعن بممالك الكفار وإنما اقتصر حديثه على ممالك الإسلام بقوله: "ولم أقصد فى المعمورة سوى الممالك العظيمة، ولا خرجت فى جهاتها عن الطريق المستقيمة، اكتفاء بالحق الواضح، والصدق الظاهر، مما اتصلت بنا حقيقة أخباره، وصحت عندنا حلية أحواله، وقنعت بما بلغه مُلْك هذه الأمة، وتمت بكلمة الإسلام على أهله النعمة. ولم أتجاوز حدها، ولامشيت خطوة بعدها، إلا ما جره سياق الكلام، أو طارح به شجون الحديث، مما اندرج فى أثناء ذلك، أو اضطرت إليه تعريجات السالك، أو اقتضاه سبب، أو دخل مع غيره فى ذمة حسب، وإن كان فى العمر فسحة، وفى الجسم صحة وللهمة نشاط، وللنفس انبساط، لأذيلن بممالك الكفار هذا التصنيف، وأجىء بفارسه العلم، وخلقه من سبيّهم رديف. لكننى لم آت فى هذا الكتاب بذكر ممالكهم (على اتساع بلادها) إلا عرضاً، ولا سطرت من تفصيلها إلا جملاً: توفيراً للمادة، وتيسيراً للجادة، ولأتمتع برونق الأنوار، ولا أشوب سواد الليل بياض النهار، على أننى ربما ذكرت فى مكان ما ما قاربه من بلاد الكفار، وذكرته للمجاورة رجاء أن يؤخذ بشفعة الجوار"[٢].

وقد كان المؤلف حريصاً على ألا يكون هناك إسهاب أو تطويل إذ يقول فى مقدمة كتابه "ولم آل جهداً فى تصحيح ما كتبته بحسب الطاقة، من غير استيعاب ولا تطويل"[٣].

ويؤكد ذلك بقوله: "فاستخرت الله تعالى فى إثبات نبذة دالة على المقصود فى ذكر الأرض وما فيها ومن فيها"[٤].

تتميز موسوعة العمرى بدقة التبويب، ووضوح الهدف، فهى مصدر هام نقل عنه الكثير من العلماء والأدباء قديماً وحديثاً، ونالت هذه الموسوعة اهتمام الأجيال التى جاءت بعده، فسارت على نهجه، وحذت حذوه، وفى مقدمة مَنْ استفاد بذلك القلقشندى صاحب كتاب (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا)، بل نجد تأثير ابن فضل الله العمرى. واضحاً فى مؤلفات تقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى المتوفى سنة (٨٤٥هـ/١٤٤١م) وخاصة فى كتبه ورسائله الصغيرة مثل رسالته عن العرب

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى: ٤١١/١.

(٢) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٤/١.

(٣) المصدر نفسه: ٤/١.

(٤) المصدر نفسه: ٢/١.

بمصر، ورسالته عن النقود الإسلامية، كما استفاد منه المقريزى، فى كتاب "المواعظ والاعتبار" بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، إلا أن المقريزى تجاهل الإشارة إلى العمرى رغم نقله الحرفى عنه، وهو أمر غير مألوف لدى المقريزى، الذى عُرف عنه الحرص على ذكر مصادره، والحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى، المتوفى سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م)، فى كتابه (حسن المحاضرة فى تاريخ مصر، والقاهرة) كان دائم الإشارة إلى ابن فضل الله العمرى، حيث أخذ منه، واعتمد عليه فى بعض معلوماته[١].

وعندما نضع هذا كله فى الاعتبار، نستطيع القول إنه لولا مؤلف العمرى هذا لبقيت حقبة بكاملها من التطورات الإدارية وبنية الدولة بمصر والشام خاصة غامضة فى سياقها العام وكثير من تفاصيلها؛ ثم إن بعض وجوه التطور التى أشار إليها العمرى، ما كانت لتعالج بعده لولا تناوله لها بالذكر، كما أن دراستها لم تكن لتتخذ المنحى الذى اتخذته. وقد وجد القلقشندى والمقريزى الطريق ممهداً أمامهما، ولم يكن عليهما إلا أن يتابعاه، ويتوسعا فى ذلك[٢].

ويمكن القول إن هذا المصنف قد ارتفع إلى مستوى راقٍ فى العرض الأدبى من غير أن يفقد فى ذات الوقت النظرة الشاملة إلى موضوعه وقد كان لمعرفته الجيدة بأسرار البلاغة وتمكنه من اللغة العربية أن تجنب بمهارة فائقة الإطالة والإسهاب، وحصر اهتمامه فى الجوهرى من الموضوع، الأمر الذى يميزه على الكثيرين من الذين جاءوا بعده. لهذا فالكتاب يمكن أن يسد مسد كتاب عام للمطالعة لا من أجل الكتاب وحدهم، بل وأيضاً من أجل الأدباء بوجه عام[٣].

فالكتاب يعد بحق دائرة معارف واسعة الآفاق مترامية الأطراف، لما حوته من أبواب شتى وفصول مختلفة تناولت العديد من العلوم والمعارف المختلفة ما بين تقويم وجغرافيا وتاريخ وأدب وغرائب وعجائب، وأخبار ملل ودول ومشاهير أعلام، وآراء حكماء، وأقوال قدماء إلى غير ذلك مما يعرضه مؤلف الكتاب لتكون للناس مراجع، وللعلم مصادر أصيلة سهلة المورد ميسرة القصد.

على أنه مما يزيد من القيمة العلمية لموسوعة العمرى تلك الأخبار والمعارف الهامة التى أوردها المؤلف فى كتابه حيث اعتمد فيها على المشاهدة والعيان والسماع ولزم فيها العمرى جانبا

---

(١) مسالك لأبصار – د. محمد سالم بن شديد العوفى: ص٤٩.

(٢) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (قبائل العرب فى القرنين السابع والثامن الهجريين – ابن فضل الله العمرى – تحقيق دورويتاكرافولسكى، المركز الإسلامى للبحوث – بيروت ١٩٨٥م : ٩، ١٠.

(٣) مسالك الأبصار – أيمن فؤاد السيد: ص٢٥.

الموضوعية والأمانة العلمية فلم يذكر شيئاً إلا عن تجربة حسية، عيانية أو منقولة عن ثقة مشهود له بالرواية والأخبار ويؤكد ذلك بقوله: "ما أذكره من حال كل مملكة وما هي عليه هي وأهلها، وما ضمه نطاق تلك المملكة، واجتمع عليه طرفا تلك الدائرة وما يوجد فيها، ليبصر أهل كل قطر القطر الآخر وبينته كأنه قدام عيونهم بالمشاهدة والعيان مما اعتمد في ذلك على تحقيق معرفتي له، فيما رأيته بالمشاهدة، وفيما لم أره بالنقل ممن يعرف أحوال المملكة المنقول عنه أخبارها، مما رآه بعينه أو سمعه من الثقات بأذنه"[1].

ولا يقتصر أهمية الكتاب على الناحية العلمية فقط بل شملت الناحية الأدبية، حيث اشتمل الكتاب على العديد من القصائد التي نظمها المؤلف والمناشير والتواقيع ومكاتبات الملوك بالإضافة إلى العديد من الرسائل الأدبية، ويؤكد ذلك ما قاله الصفدي: "ترسّل كثيراً وأنا أراه من رأس القلم عن الدولة وعن نفسه إلى إخوانه فيأتي بما يبهر العقول، لم أر لأحد قدرته على ذلك"[2].

وتزداد قيمة الكتاب الأدبية في شخصية المؤلف حيث تبدو واضحة كل الوضوح فيما يعرضه لنا في كتابه، وانتقائه لمواد الكتاب، وما ينقله من مختلف المصادر، وهو انتقاء يدل على درجة ما يتمتع به مؤلف الكتاب من حس مرهف وذوق رفيع، ويؤكد على ذلك الصفدي بقوله: "حسن القريحة في النظم والنثر، أما نثره فلعله في ذروة كان أوج الفاضل لها حضيضاً ولا أرى أحداً يلحقه فيه جودة وسرعة عمل لما يحاوله في أي معنى أراد وأي مقام توخاه، وأما نظمه فلعله لا يلحقه فيه إلا الأفراد"[3].

وعلى الرغم من أنه نقل الكثير من المعلومات عن غيره، إلا أنه عقد أكثر سطور الكتاب بلفظه، فشخصيته فيه بارزة كما يذكر الصفدي في كتابه بقوله: "أضاف الله تعالى له إلى ذلك كله حسن الذوق الذي هو العمدة في كل فن، وهو أحد الأدباء الكملة الذين رأيتهم؛ وأعني بالكملة الذين يقومون الأدب علماً وعملاً في النظم والنثر، ومعرفة بتراجم أهل عصرهم ومن تقدمهم على اختلاف طبقات الناس وبخطوط الأفاضل وأشياخ الكتاب"[4].

وسوف نتناول المواد الأدبية التي عرضها المؤلف - إن شاء الله - في الفصل الخاص بالمادة الأدبية للكتاب.

---

(١) مسالك الأبصار - أحمد زكي باشا: ٢/١.

(٢) الوافي بالوفيات - الصفدي: ٢٥٥/٨.

(٣) المصدر نفسه : ٢٥٣/٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢٥٤/٨.

الفصل الخامس

المصادر المختلفة لمسالك الأبصار

المصادر المختلفة لمسالك الأبصار:

يعد كتاب "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمرى من الموسوعات التى تتناول علوماً شتى وفنوناً مختلفة تتمثل فى التقويم والأدب والتاريخ والقصص والشعر والنثر، حيث استطاع العمرى أن يستقى معلوماته فى موسوعته من مصادر أصيلة أدبية وعلمية ساعده على ذلك نشأته العلمية، وما اشتهرت به أسرته من علم وفضل ناهيك عن عمله فى ديوان الإنشاء، والذى لايعمل فيه سوى أقطاب النثر والبلاغة، ممن تؤهلهم معارفهم الواسعة للإطلاع على أسرار الحكم والسياسة الداخلية والخارجية للدولة، وسير العلاقات بين مصر والمماليك المجاورة.

لقد كان العمرى مدركاً لمتطلبات عصره عندما ضمن موسوعته عدداً ليس قليلاً من المنتخبات الشعرية، التى كانت لا تخلو منها بعض المعاجم الجغرافية الأخرى، مثل (معجم البلدان) لياقوت الحموى، حيث لاحظنا وفرة عدد الشعراء والأدباء الذين استعان بهم العمرى فى استقاء مادته الأدبية والعلمية فرجع إلى دواوين معظم الشعراء الذين نقل أشعارهم وغير ذلك من المظان الأصلية المختلفة، تلك المظان التى حرص العمرى على انتقائها بعناية شديدة، وأن تكون مادته موثقه تمام التوثيق، وفى هذا يقول "فإن نقلت عن بعض الكتب المصنفة فى هذا الشأن ، فهو من الموثوق به فيما لابد منه كتقسيم الأقاليم، وما فيها من أقوال القدماء، واختلاف آراء الحكماء، إلى غير ذلك من غرائب وعجائب، وأخبار وملل ودول، وذكر مشاهير وأعلام وتاريخ سنين وشهور وأيام"[1].

ويمكن القول إن ما اعتمد عليه العمرى فى موسوعته من مصادر قد اتسمت بالدقة والوثوق والمعاصرة.

ومن المصادر التى استعان بها العمرى "القرآن الكريم" وقد أفاد منه فائدة كبيرة انعكس ذلك على كتابه ففى هذا يقول: يقول تعالى ﴿ أفلم يسيروا في الأرض﴾[2]. وقال تعالى ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت {١٧} وإلى السماء كيف رفعت {١٨} وإلى الجبال كيف نصبت {١٩} وإلى الأرض كيف سطحت {٢٠}﴾[3]، وقال تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنآ ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾[4].

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٢/١.

(٢) المصدر نفسه: ٢/١، سورة يوسف الآية ١٠٩.

(٣) المصدر نفسه: ٣/١، سورة الغاشية – الآيات ١٧–٢٠.

(٤) المصدر نفسه: ٣/١، سورة آل عمران – الآية ١٩١.

كما جاء ذكر القرآن الكريم فى معرض وصف الله تعالى الجهال بعدم العقل فقال ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[١]، وما أودعه الله سبحانه وتعالى من عجائب المصنوعات فى الأرض والسموات فيقول تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[٢]، ويقول تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾[٣]، كما جاء ذكر القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[٤].

ولما تناول العمرى الحديث عن المساجد الثلاثة ونعنى بها المسجد الحرام ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم، والمسجد الأقصى، كثر استشهاده بالقرآن الكريم والحديث الشريف، فيقول تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ {٩٦} فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ{٩٧}﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾[٦]. وقال أيضاً: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[٨].

وقال تعالى ﴿ فَاذْكُرُوا اللهَ عِندَ المَشْعَرِ الحَرَامِ ﴾[٩]، ولما قال الله تعالى للسموات والأرض ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١٠].

ومن المصادر التى اعتمد عليها العمرى أيضاً فى موسوعته الحديث الشريف قوله: "قال النبى صلى الله عليه وسلم: للناس أجر ولك أجران وآخر زادك من الدنيا شربة لبن وتقتلك الفئة الباغية"[١].

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٧/١، سورة الفرقان – الآية ٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ٧/١، سورة يوسف – الآية ١٠٥.

(٣) المصدر نفسه: ٣٩/١، سورة طه – الآية ٥٥.

(٤) المصدر نفسه: ٦٢/١، سورة الجمعة – الآية ٤.

(٥) المصدر نفسه: ٨٩/١، سورة آل عمران – الآية ٩٦،٩٧.

(٦) المصدر نفسه: ١٠٨/١، سورة البقرة – الآية ١٤٤.

(٧) المصدر نفسه: ١٩٠/١، سورة الإسراء – الآية ١.

(٨) المصدر نفسه: ١١٢/١، سورة البقرة – الآية ١٥٨.

(٩) المصدر نفسه: ١١٩/١، سورة البقرة، الآية ١٩٨.

(١٠) المصدر نفسه: ١١٩/١، سورة فصلت – الآية ١١.

وقوله أيضاً: "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام"[٢].

وجاء فى موسوعة العمرى "أن أبا سعيد الخدرى روى أن رسول الله صلى لله عليه وسلم سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال هو مسجدى هذا وفى رواية أخرى قال وفى الأرض خير كثير"[٣].

ومن الحديث الشريف أيضاً ما ذكره العمرى عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "صلاة الرجل فى بيته بصلاة واحدة، وصلاته فى مسجد القبائل بست وعشرين صلاة وصلاة فى المسجد الذى يجمع خمسمائة صلاة وصلاته فى المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاته فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة"[٤].

وهناك مصادر علمية وأدبية كثيرة اعتمد عليها العمرى فى موسوعته نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- كتاب "الشفا" لابن سينا، وقد أفاد منه العمرى فى حديثه عن كيفية الأرض ومقدارها[٥].
- كتاب "نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق" للشريف الإدريسى صنفه للملك رجار صاحب صقلية، استفاد منه العمرى أيضا فى ذكره عن كيفية الأرض ومقدارها[٦].
- كتاب "المسالك والممالك" لأبى عبيد البكرى أفاد منه العمرى فى معرض حديثه عن كيفية الأرض ومقدارها[٧].
- كتاب "ابن الشاطر" فى معرض حديثه عن كيفية الأرض ومقدارها[٨].
- كتاب "فقة اللغة" للثعالبى، وقد أفاد منه العمرى فى حديثه عن أسماء الأرض وصفاتها[٩].
- كتاب "الأحجار" لأرسطو، فى معرض حديثه عن أسماء الرمال وصفاتها[١٠].
- كتاب "سلسلة المسجد فى صفة الصخرة والمسجد" للصاحب تاج الدين أبو الفضائل أحمد بن أمين الملك[١].

---

(١) المصدر نفسه: ١٢٦/١.
(٢) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ١٢٨/١.
(٣) المصدر نفسه: ١٣٠/١.
(٤) المصدر نفسه: ١٤٠/١.
(٥) المصدر نفسه: ١٧/١.
(٦) المصدر نفسه: ٢٠/١.
(٧) المصدر نفسه: ٢٠/١، ٢٤.
(٨) المصدر نفسه: ٢١/١، ٢٢.
(٩) المصدر نفسه: ٣٢/١-٣٥.
(١٠) المصدر نفسه: ٤٥/١.

- كتاب "تاريخ دمشق" للحافظ ابن عساكر فى معرض حديثه عن كهف جبريل[٢].
- كتاب "تاريخ ابن خلكان" لقاضى القضاة أبو العباس أحمد بن خلكان فى معرض حديثه عن قصر العباس[٣].

ومن المصادر التى استقى منها المؤلف مادته العلمية والأدبية أيضاً تلك الكتب الموضوعة فى أحوال الأقاليم والتى تتضمن أحوال الملوك السالفة والأمم البائدة، يقول المؤلف فى ذلك "لقد طالعت الكتب الموضوعة فى أحوال الأقاليم وما فيها فلم أجد من بين أحوالها ومثل فى الأفهام صورها لأن غالب تلك الكتب لا تتضمن سوى الأخبار القديمة، وأحوال الملوك السالفة والأمم البائدة وبعض مصطلحات ذهبت بذهاب إبلها"[٤].

والحق أن العمرى كان حريصاً كل الحرص على توثيق مادته العلمية والأدبية فرجع إلى كثير من الأدباء والشعراء الذين نقل عنهم نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

القاضى الفاضل، الشيخ سعيد الدكالى، المسعودى، الفتح بن خاقان، ابن ظاهر، الوزير أبو الفضل ابن حسداى، ابن جرير الطبرى، الأزرقى، الماوردى، السهيلى فى معرض حديثه عن صفة المسجد الحرام المحيط بالكعبة، عبد الجليل بن وهبون، أبو محمد بن صارة، الشريف الرضى، ابن العينى، ابن قلاقس، ابن المنجم، ابن المهيار، الخالدى، البحترى، ابن المعتز، الصنوبرى، اسحاق الموصلى، أبو النصر البحرى، الشابشتى، أبو نواس، خالد بن يزيد، ابن الضحاك، أبو العيناء، السرى الرفاء، حسان بن ثابت، أبو الفرج الأصبهانى، ابن قيس الرقيات، عمرو بن عبد الملك الوراق، عدى بن زيد، ديك الجن، أبو على حسن الغزى، المازنى، المبرد، جرير، الوليد بن يزيد، محمد بن عاصم المصرى، ابن ظافر، السراج الوراق.

مما سبق يتضح لنا أن العمرى كان يرجع إلى دواوين معظم هؤلاء الشعراء وهى دواوين أصيلة موثقة، وبقدر عنايته بتحرير الأشعار التى أوردها، عنى عناية فائقة بالنثر فكانت هناك رسائل نثرية بديعة فى موضوعات مختلفة ضمنها العمرى فى موسوعته.

---

(١) المصدر نفسه: ١٠٥/١.

(٢) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٢٢٨/١

(٣) المصدر نفسه: ٢٦٩/١.

(٤) المصدر نفسه: ٣/١.

الباب الثالث

المادة الأدبية والعلمية في مسالك الأبصار

يمكن القول إن موسوعة العمرى تعد من الموضوعات المهمة فى المكتبة العربية إلا إنها تنحصر فى قسمين: "الأول: فى الأرض أى الجغرافية وما يلحقها، والثانى: فى سكان الأرض ويقسم هذا إلى ما يتعلق بالحيوان الناطق، وغير الناطق فبحث فى الأجزاء الأولى منه فى التاريخ الطبيعى والجغرافية، وما يتبع ذلك من مسالك الممالك، والرياح، وعجائب البر والبحر، ومواقع مشاهير البلاد، وخصوصا مملكة مصر والشام والحجاز، وترتيبها ونظامها، واختص منازل العرب بالكلام كما كانت فى زمانه، وأفاض فى وصف سكان الأرض، وقسمهم إلى سكان الغرب، وسكان الشرق، وترجم لرجالهم فى شكل التفاضل بين البلدين، فأتى على تراجم الأطباء والعلماء والفقهاء، وسائر رجال العلم والسياسة والإدارة فيهما، وهو باب كبير ثم نظر فى غير الناطق، والجماد، وبحث فى العلوم الطبيعية كالمعادن والحيوان والنبات، وتوسع فى وصف الطيور، وسائر الحيوان، وقسم التاريخ حسب الأمم والبلدان على اختلاف الأزمان والأصقاع إلى سنة ٧٤٤، ودقق فى تواريخ المغول والهنود والأتراك فضلا عن الأمم الأخرى"[١].

ومن أهم الموضوعات التى تناولها مؤلف الكتاب هى الأرض وما اشتملت عليه برا وبحرا فيلخص لنا أقوال أهل العلم عن كيفية الأرض ومقدارها فيقول: "إن العلم كرة والأرض مركزها والماء محيط بها لا يفارقها إلا من كشف فالأرض فى جوف الماء، والماء فى جوف الهواء، والهواء فى جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضة فى القشر ووضعها وضع متوسط، والهواء إما جاذب لها إلى جهة الفلك أو دافع عنه، وذهب بعضهم إلى أنها مستقرة بالوضع"[٢].

ويذكر المؤلف فى معرض حديثه عن كيفية الأرض ومقدارها قوله: "الأولى أن يقسم دور كرة الأرض على ثلاثة وسبع لأنه نسبة كل قطر دائرة إلى محيطها وهو أصح وعلى هذا فيكون الدور أربعة وعشرين ألف ميل ويكون القطر سبعة آلاف وستمائة وستة وثلاثين ميلا وثلث خمس مجبورا"[٣].

ثم يستطرد العمرى فى موسوعته عن أهم الموضوعات العلمية والأدبية فيستعرض أسماء الأرض وصفاتها[٤]، وأسماء التراب وصفاته[٥]، وأسماء الغبار وصفاته[٦]، وأسماء الرمال وصفاتها[٧].

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا، ١٦/١.

(٢) المصدر نفسه، ١٦/١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٠/١.

(٤) المصدر نفسه: ٣٢/١-٣٥.

(٥) المصدر نفسه: ٣٥/١، ٣٦.

(٦) المصدر نفسه: ٣٧/١.

(٧) المصدر نفسه: ٣٧/١، ٣٨.

ويتحدث بعد ذلك المؤلف عن الجبال والأنهار فيذكر أنهما من عالم الأرض، أما البحار فهى عالم آخر أكبر من عالم الأرض بمال لا نسبة بينها.

ويمضى فى حديثه عن البحيرات والمساجد الثلاثة وما يندرج معها، وكذلك الأرباع المقسومة الآن وما بها من الجبال وتتمثل فى الربع الشرقى الآخذ إلى الجنوب، والربع الغربى الآخذ إلى الجنوب، والربع الثالث الغربى الآخذ إلى الشمال، والربع الرابع الآخذ إلى الشمال[١]. وعن جبال مكة والمدينة يتحدث العمرى فيبدأ بجبال مكة أولا، لعظمتها وأحقها بالتقديم ويذكر جبل عرفات موقف الحجيج الأعظم وركن الحج الأكبر، وجبل أبى قبيس[٢].

وهناك جبال أخرى كثيرة أشار إليها العمرى نذكر منها على سبيل المثال: جبل قعيقعان وهو يقابل أبا قبيس من ناحية الشمال، وجبال أجياد مكة، وجبل ابن عمران وهو الجبل الأسود الذى بين أبى قبيس وأجياد، وجبل البكاء، وجبل ثبير، وجبل حراء وهو على يسار المار إلى منى وهو الجبل الذى حبب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلوة فيه حين أتاه الوحى[٣].

أما عن جبال المدينة فيذكر لنا جبل أحد وهو أشهر جبال المدينة وبينه وبين المدينة ميل وأفسح قليلا فى شمال المدينة[٤].

وبعد أن انتهى من الحديث عن الجبال يذكر المؤلف الأنهار "فيقسمها لأربعة أقسام تتجزى بها المعمورة طولا وعرضا، فالربع الأول منها هو الربع الشرقى الآخذ إلى الجنوب وما به من الأنهار، والربع الثانى منها هو الربع الغربى الآخذ إلى الجنوب وبه نهر النيل العظيم، والربع الثالث منها وهو الغربى الآخذ إلى الشمال، وأشهر أنهارها هو نهر أشبيلية ودجلة والفرات، والربع الرابع منها وهو الربع الشرقى الآخذ إلى الشمال وبه ما يذكر من أنهار"[٥].

وقد ذكر المسعودى وغيره أقوالا كثيرة عن نهر النيل فيقول القاضى الفاضل: "وأما النيل فقد امتدت أصابعه وتكثرت بالموج أضالعه ولا يعرف الآن بمصر قاطبة نهو سواه ولا من يرجى ويخاف إلا إياه"[٦].

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٤٨/١-٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ٥٥/١.

(٣) المصدر نفسه: ٥٧/١-٥٩.

(٤) المصدر نفسه: ٥٩/١.

(٥) المصدر نفسه: ٦٠/١-٨٢.

(٦) المصدر نفسه: ٦٢/١.

وينقل العمرى عن الشيخ سعيد الدكالى قوله: "ولقد توغلت فى أسفارى فى الجنوب مع النيل فرأيته متفرقا على سبعة أنهر تدخل فى صحراء منقطعة ثم تجتمع تلك الأنهر السبعة وتخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا مجتمعا كلا الرؤيتين فى بلاد السودان"[١].

ويعد فن الوصف من أظهر فنون الشعر انتشارا، وأكثرها كما وأطولها سردا، ولا مبالغة فى أن مؤلف الكتاب من صنف هؤلاء الأدباء الذين ألفوا الطبيعة، واهتموا بها فأحس بكل شئ فيها، فاتخذها فى كثير من أعماله الأدبية وسيلة للكشف عن عواطفه، بل اتخذها غاية فى ذاتها، وتنافس فى ميدانها، فوصف كل ما وقع تحت نظره منها، وما أحسه فى نفسه من عطائها إن خيرا وإن شرا.

والمؤلف فى كل موقف من المواقف التى يصفها يتخذ الأوصاف الكاشفة، ويعتمد على الأخيلة المصورة، لذا فقد أتت ألفاظه فى كثير من الأحيان معبرة، وعباراته منسجمة، وصوره مقبولة، فيذكر فى وصف النيل قول عبد الجليل بن وهبون[٢]:

كأنَّمـــا الشمعتـــان إذْ سمتـــا ... خـدَّا غـــلامٍ محسَّـــنِ الغيـــدِ

وفى حَشـا النهـرِ مـن شُعاعِهمـا ... طريـق نـــار الـهوى إلى كبـدى

وقال على بن ظافر: "ركب الأستاذ أبو محمد بن صارة مع أصحاب له فى نهر إشبيلية، فى عشية سال أصيلها على لجين الماء عقيانا، وطارت زوارقها فى سماء الماء عقبانا، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سررا وأعكانا فى زورق يجول جولان الطرف، فقال بديها[٣]:

تأمَّلْ حالنـــا والجـــوُّ طَلْـــقٌ ... مُحَيَّـــاهُ وقـــد طَفِـلَ المَسَـــاءُ

وقـد جَالـتْ بنـا عَـذراء حُبْلَـى ... تَجَاذَبَ مِرطَهَـا ريـــحٌ رُخَـــاءُ

بنهـــر كالسَّجَنْجَـــلِ كَوْثَـــرِيٍّ ... تُعَبِّسُ وَجْهَهَـــا فيـــهِ السمـــاءُ

وفى هذا الوصف يرد ابن خفاجة يعارض على الوزن والروى والطريقة فى قوله السماء تحسد الأرض[٤]:

أَلاَ يـا حبَّـذا ضَحِـكَ الحُمَيَّـا ... بحانَتِهَـا، وقـد عَبَـسَ المَسَـاءُ

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٦٦/١.

(٢) المصدر نفسه: ٧٠/١.

(٣) بدائع البدائه – على بن ظافر الأزدى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٧٠م: ص٣٧٦، مسالك الأبصار: ٧٠/١، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – أحمد بن محمد المقرى التلمسانى – تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعى – دار الفكر للطباعة والنشر التوزيع ١٩٨٦م: ٢٩٧/٤.

(٤) ديوان ابن خفاجة – تحقيق د. السيد مصطفى غازى – منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٦٠م: ص٣٦٧.

وأدهَـمُ مـن جيـادِ المـاءِ نهـد تُنَـازِع حبْلَـهُ ريـحٌ رخَـاءُ
إذا بَـدَتِ الكَواكبُ فيـه غَرْقَـى رأَيْـتَ الأرضَ تَحْسُدُهـا السماءُ

يقول الشاعر: إذا غرقت كواكب هذا الليل بالغيوم فصارت لا تبين، رأيت السماء تحسد الأرض التى تظهر نجومها، أى أزهارها، بعد المطر. هذا النوع من المعارضات الشعرية تمثل نوعا من التواصل الإبداعى فى مجال الأدب خلال عصوره المختلفة، وهى طموح مشروع لإثبات الذات لدى المبدع، حيث يثبت قدرته الخاصة على التشكيل الإبداعى انطلاقا من الموروث، ومن هنا تظل المعارضات مجالا خصبا لتواصل الأجيال، ومحاولة لإحياء ذاكرة الأمة من خلال تراثها فى العصور المختلفة، كما يظل الحديث عنها بمنأى عن فكرة الأخذ أو السرقة الأدبية.

وإذا كانت المعارضة لونا من المحاكاة لعمل فنى جيد اشتهر به صاحبه أو استحسنه المعارض وأراد أن يجاريه، فإنها تظل محتفظة بشكلها الفنى وأصولها ومقوماتها ودلالالتها الخاصة سواء على الصعيد النفسى لدى الشاعرين المتعارضين، أو على مستوى الدلالة الزمنية لنظم كلتا القصيدتين.

ونرى الوزير أبو الفضل بن حسداى[1]، والطرب قد استهواه، من بديع ما رأى فى نهر سرقسطة وهو نهر رق ماؤه وراق، وأزرى على نيل مصر ودجلة والعراق، وقد اكتنفته البساتين من جانبيه، وألقت ظلالها عليه، فاسترق هواه فقال[2]:

لله يـومٌ أنيـقٌ واضـحُ الغُـرَرِ مُفَضَّضٌ مُذْهَبُ الآصَالِ والبُكَرِ
كأنَّما الدهر لمَّا سَاءَ أعتبَنَا فيه بِعُتْبَى وأبدى صفحَ معتذرِ
نسيرُ فى زورقٍ حفَّ السَّفِينُ به من جانبيهِ بمنظومٍ ومنتثرِ

وحديث المؤلف عن الديور حديث جميل إذ يمدنا فيه ابن فضل الله العمرى بصورة شائقة لنوع من الحياة الاجتماعية، والأدبية، وكان يحياها سكان هذه الأديرة، وكانت تنعم بها طائفة مثقفة من أمراء مصر وشعرائها فى تلك الأماكن النائية.

ولابن المعتز بعض الأبيات فى دير السوسى[3]:

يـاَلَيالِـىَّ بالمطيـرة والكَـرْ خِ ودير السُّوسِىِّ بالله عـودى

---

(١) ابن حسداى: هو حسداى بن يوسف بن حسداى أحد كتاب مصر.
انظر القلائد ص١٨٣، الذخيرة ٣/١٥٣.

(٢) بدائع البدائه: ص٣٦٧.

(٣) الديارات – أبى الحسن على بن محمد الشابشتى – تحقيق كوركيس عواد – مطبعة المعارف بغداد ١٩٥١م: ص٩٦. والأبيات غير موجودة بالديوان.

كنتِ عندى أنموذجاً من الجنّةِ لكنّها بغيرِ خُلودِ
أشربُ الرّاحَ وهى تَشْرَبُ عَقْلِى وَعلَى ذَاكَ كان قَتْلُ الوليدِ

ولابن المعتز أيضاً فى دير عبدون[1]:

سَقى الجزيرةَ ذاتَ الظلِّ والشَّجرِ فدير عَبْدونَ هَطَّالٌ من المَطَرِ

وفى دير الصالحية يقول الصنوبرى[2]:

إنى طَرِبْتُ إلى زيتون بطياس فالصالحيّة ذاتِ الوردِ والآسِ
وصفُ الرياضِ كفانى أن أقيم على وصف الطُّلُولِ فهل فى ذاكِ من باسِ
وقائل لى: أفِقْ يوماً فقلت له: من سكرة الحُبِّ أمْ من سكرةِ الكَاسِ

فالشاعر من شعراء الطبيعة الذى عاش يتغذى خياله وروحه منها، واصفاً لحدائقها وبساتينها ورياضها، حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وكده من حياته، حتى أننا نراه فى هذه الأبيات وهو يخالف القدماء فى وصفهم الأطلال والديار، ويُعْلى وصف الطبيعة عليه، وكأنه أول تعبير قوى عن شغف شعراء الشام بطبيعة ديارهم الخلابة.

ودير الروم من الديارات التى تقع بأرض بغداد، وفيه يقول الشابشتى[3]:

وجوهٌ بدير الرُّومِ قد سَلَبَتْ عَقْلِى فَأَصْبَحْتُ فى بُؤْسٍ شديدٍ من الخَبْلِ
فلم تَرَ عينى منظراً مثلَ حُسنِهم ولم ترَ عينٌ مستهاماً بها مثلى

ومن الديارات التى أشار إليها المؤلف أيضاً فى كتابه: دير قوطا وهو بالبردان على شاطئ دجلة، وكان ينزل فيه عبد الله بن العباس بن الربيع أياماً مع بعض رفاقه يشربون ويقصفون ويمجنون، وله يصور ما كان من هذا المجون والقصف والشراب مع بعض صحبه، إذ يقول[4]:

يا دَيْرَ قُوطَا لقد هَيَّجْتَ لى طَرَباً أزاح عن قلبى الأحزان والكُرَبَا

ويستطرد المؤلف الحديث عن الديارات فيذكر دير سعيد بالجانب الغربى المطل على دجلة[5]،

---

(١) ديوان ابن المعتز – تحقيق كرم البستانى – دار صادر بيروت – لبنان ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص٢٤٦، وفى رواية الديوان (سقى المطيرة... ودير عبدون).

(٢) ديوان الصنوبرى – تحقيق د. إحسان عباس – دار الثقافة – بيروت – لبنان – ١٩٧٠م: ص١٨١، ١٨٢، وفى رواية الديوان (ألاطربت ... فصالحية ذات السرو والآس).

(٣) الديارات – الشابشتى: ص٢١٥.

(٤) المصدر نفسه: ص١٠٤.

(٥) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٣١٣/١.

وفيه يقول الخالدى[١]:

نـــراكَ تَنْسَـى سُـرُورَ يومِكَ فـى ... دَيْـرِ سعيـدٍ وظِلّـــه الأَفْيَـحْ

على بساطٍ مـــن البنفســـج قـــد أَلْـ ... ـقَـى من الوردِ فوقـــه مطـــرحْ

ودير الجاثليق وهو قديم البناء غربى دجلة[٢]، وفيه أنشد ابن قيس الرقيات[٣]:

لقـد أورث المِصْرَيْـنِ خِزْيـاً وذِلّـةً ... قتيـلٌ بديـــر الجاثليـق مقيـمُ

فَما قَاتَلَتْ فى اللهِ بكـرُ بـنُ وائـلٍ ... ولا صَدَقَـتْ عِنْـدَ اللِّقَـاءِ تَميـمُ

ودير الطور[٤]، وفيه يقول المهلهل بن يموت بن المزرع[٥]:

مَضَيْـتُ إِلَـى الطُّـورِ فـى فِتْيَـةٍ ... سِـرَاعِ النُّهُـوضِ إلى ما أُحِبّْ

كِـرَامِ الجُـدودِ، حِسَـانِ الوجُـوهِ ... كهولِ العقـولِ شَبَـابِ اللَّعِـبْ

فَـأَىُّ زمـانٍ بهـم لـم يُسَـرّ ... وأىُّ مكـانٍ بهـم لَـمْ يَطِـبْ

ودير هرقل بالشام[٦]، وفيه يقول دعبل بن على حين هجا أبا عباد كاتب المأمون[٧]:

فكَأنَّـهُ مـن ديـــر هرقـلَ مُفْلَـتٌ ... حـــرِدٌ يَجُـــرُّ سَلَاسِـلَ الأَقْيَـادِ

وللمؤلف أرجوزة طويلة بلغت عدد أبياتها ١٣٦ بيت ألفها فى ديـر نـهيا، يقال لـه (الديـر الأبيض) بالوجه القبلى، وهو دير جليل البناء أبيض بنى بالحجر الأبيض فسمى عليه وفيه يقول[٨]:

يـومٌ لنَـا بالدَّيْـرِ، ديـر الأبيـضِ ... قـد انقضـــى وطيبـهُ لم ينقـضِ

قد جِئْتُـه فـى العسكَـرِ المنصُـورِ ... فغلّـق الأبـــوابَ كالمحصُـــورِ

ونـــزل الرهبـان فيـــه بالدَبُّـوسِ ... فيـــه إلـــى قـــرارة الدَّيْمُـوسِ

وشبيه بذلك ما نظمه أيضا وأطال فيه وأبدع، وأجاد فيه وأمتع، وهو قوله يصف مسك أرض

---

(١) ديوان الخالديين – تحقيق د. سامى الدهان – دار صادر بيروت – لبنان ١٩٩١م : ص٤١.

(٢) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا : ٣٣٤/١.

(٣) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات – تحقيق محمد يوسف نجم – دار صادر بيروت: ص١٩٦.

(٤) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٣٦٤/١.

(٥) الديارات – الشابشتى: ص١٣٢.

(٦) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٣٧٢/١.

(٧) ديوان دعبل بن على الخزاعى – تحقيق عبد الصاحب الدجيلى الخزرجى – مطبعة الآداب – النجف ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م: ص١٤٨.

(٨) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٤٠٥/١، ٤٠٦.

مصر، وريا الروض وعطر الريح واغتباق الأغصان، واهتزاز صفاح النيل، ويذكر سفائنه التى كالجبال، وصهواتها الساكنة بينما الأفق حديقة خضراء مزهوة، والمجرة نهر يتدفق، والليل زنجية فى وشاحها تقوده الجوزاء إلى غير ذلك من المشاهد الطبيعية الفاتنة الجميلة، التى يدل وصفه لها على امتزاج مشاعره وامتلاء نفسه بطبيعة بلاده ومحاسنها، وعلى مدى تأثير هذه الطبيعة والمحاسن فيه يقول[1]:

ما بينَ أكنافِ البطاحِ ... مسك يذر علَى الرياحِ
من حيثُ يلقِى الروضَ فى ... أزهارها ريان ضَاحِى
والريحُ فى السحرِ البهـ ... ـيمِ يطيرُ مسكى الجناحِ
يسرِى فتغتبقُ الغصو ... نَ بهِ على عينِ الصباحِ
والنيلُ فى تياره الـ ... ـمنصب مهتز الصفاحِ

وكتب ابن فضل الله العمرى للصفدى رسالة يصف له تواتر الأمطار والثلوج والرعود والبروق عليه فى سباط من سنة ست وأربعين وسبعمائة وأنهم فوجئوا بها، وأنها قد هطلت عليهم فى شهر سباط كالبحر الزاخر، وأن أيامها قد امتدت بلا غاية وانهالت معها الثلوج كما خفيت فى حشاياها البروق، وأرمدت منها العيون فيقول[2]:

هى السَّحَائِبُ أمَّا وَجْهُهَا فَنَدٍ ... طلقٌ وأماندا فهو مِلْءُ يَدِى
خَضْرٌ تسُنُّ سيوف البرق آونةً ... إن السحاب لجَلَّاءٌ لِكُلِّ صَدِ
ما كَان أمشير مِمَّنْ لا يشيرُ بِمَا ... أوْصَتْ إليه بكفٍّ خُضِّبَتْ ويَدِ

وينقل لنا المؤلف فى رسالة أخرى صورة من الحوادث الطبيعية التى وقف حيالها وفى هذا المجال استطاع - إلى حد كبير - أن ينقل لنا صورة الواقع فى سطوره وقد ساعده على ذلك خيال صور كل مظاهر الكون، وبث الروح والحياة فيها، كما ساعده انتقاؤه الألفاظ والعبارات التى توحى بهذه الصورة القاتمة المفزعة بكل ملامحها من شكل ولون، وصوت وحركة إلى غير ذلك من مقومات أسلوبه فكان تصوره لمظاهر هذه الكارثة فيقول فى رسالته للصفدى وقد تواترت الثلوج والأمطار سنة ٧٤٤[3]:

"كيف أصبح مولانا فى هذا الشتاء الذى أقبل يرغب بمقدمه، ويرهب تقدمه، ويريب اللبيب من برقة المومض تبسمه، وكيف حاله مع رعوده الصارخة، ورياحه النافخة، ووجوه أيامه الكالحة،

---

(١) عصر سلاطين المماليك: ٣٥٦/٧، ٣٥٧.

(٢) ألحان السواجع بين البادى والمراجع: ٢١٢/١، ٢١٣.

(٣) الوافى بالوفيات: ٢٥٧/٨، ٢٥٨.

وسرر لياليه التى لاتبيت منها بليلة صالحة، وسحابه وأمواجه، وجليده والمشى فوق زجاجه...".

ومن الرسائل التى أوردها المؤلف أيضا رسالته إلى الصفدى فى القاهرة المحروسة وهو فى دمشق المحروسة يصف الثلج الكائن فى شهر الله المحرم سنة خمس وأربعين وسبعمائة يقول فيها:

"يقبل كذا، لا أرى فى هذا الشتاء كيف حال أودائه، وكيف حال بلده الذى رقت عليه حتى القاسية قلوب أعدائه، وكيف حال الناس تحت ذيول هذه الأشتية المحرورة، ونوافض هذه الرعود المقروره، وقرح شقر هذه البروق المغرورة، وغرر هذه الأيام المغرورة، وسواقى هذه الغيوث المزروره..."[1].

ومن الفنون الشائعة فى موسوعة العمرى فن المديح فنجده يمدح الخليل عليه السلام قائلا[2]:

هذا خليلُ اللهِ إبراهيم قد ... لاَحَتْ لنَا أعلامه الشُّمُّ الذُّرى

هذا الذى سَنَّ القِرى لضيوفِهِ ... كرماً ولولاه لما سُنَّ القِرَى

هذا الذى مَدَّ السماط فما انطوى ... ذاك السماط تكرماً وسَلِ الورَى

وقال أيضا مادحا الخليل عليه السلام حين زاره فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة[3]:

خليلُ إلهِ العَرشِ أولُ من قَرى ... ضُيوفاً وها قد جئْتُهُ واستضفتُهُ

أتيتُ كريماً لا تزالُ رِحَابُه ... مُطَبَّقَةً بالوفدِ حيثُ نظرتُهُ

دَعَتْ نارُه الضِّيفانَ فى غَسَقِ الدُّجَى ... وليَس سِوَاهَا بارقاً ثَمَّ شِمتُهُ

فتَى الجودِ شيخُ الأنبياءِ جميعِهم ... ووالدُهم حقّاً يقيناً علمتُهُ

وقال عند الوداع فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة[4]:

هذا الخليل وهذه أبناؤُهُ ... يكفيك بعد فراقك أنباؤُهُ

هيهات لا تُوفِى أقلَّ حقوقِهِ ... ولو أن جفنَك لا يجفُّ بكاؤُهُ

ومن مدائحه النبوية ما أنشدينه من لفظه قوله[5]:

---

(١) ألحان السواجع بين البادى والمراجع: ٢٠٣/١-٢٠٧.

(٢) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ١٨٥/١.

(٣) المصدر نفسه: ١٨٦/١.

(٤) المصدر نفسه: ١٨٦/١.

(٥) الوافى بالوفيات: ٢٦٥/٨، ٢٦٦.

جَنَحْتُ إِلَىَّ مَعَ الأصيلِ المُذهَبِ ... والركبُ ممتدُّ الخَطَا فى المذهَبِ
واليومُ مبيضُّ الإِزَارِ وإنَّمَا ... جنبُ الإِزَارِ مُطَرَّزٌ بالغيهبِ
والشمسُ قد هَمَّتْ لتذهبَ رهبةً ... لكنَّها بقيتْ لنا لم تذهبِ

وهام الأديب البارع شهاب الدين الله العمرى هياما شديدا بمصر ونيلها ورياضها، وعشق مغانيها ومجانيها، ومفاتنها ومحاسنها، فكتب عنها فى سياق رسالة منثورة، بعث بها إلى الأمير ألجاى الدوادار أبياتا تنم عن حب أصيل، وشعور بقدسيتها جميل نبيل، بلغ به حد الفخر والتيه وإن خلطه بمدح لمدوحه، فقد قال له[1]:

بل أنتَ سَاكنٌ فى رُبَاهَا ... بلد تحسدُ الثريا ثراهَا
قد تعالَتْ إلى السماءِ بسكنا ... ك فَألْقَتْ على البطاحِ رداهَا
جمد الطل فى الزهورِ فخلْنَا ... أنه عقد جوهر لرُباهَا
وجرى النيلُ فى الرياضِ فقُلْنَا ... كسرت فوقه المغانِى جلاهَا

ويمثل التهانى فنا آخر من الفنون الشائعة فى هذه الموسوعة، ولم تقتصر هذه الرسائل الواردة على ما جاء عقب الشعر، أو قبله، بل انفردت بهذه المناسبة رسائل كاملة على نحو ما كتبه ابن فضل الله العمرى للصفدى يرد فيه على جواب كتبه إليه تهنئة بولاية والده القاضى محيى الدين كتابة السر الشريف بقصيدته الهائية التى مطلعها[2]:

رَدَدْتَ على عَيْنِى لَذِيذَ كَرَاهَا ... فَعَاوَدَها طيفٌ أَطَالَ نَوَاهَا

فصاحب الرسالة بعد أن نظم قصيدته فى هذا الغرض وعرض لمعظم معانيه فيها، يستأنف الحديث عنها نثرا، ويطنب فى عرضها على أن القارئ لرسالته النثرية يحس من افتتاحها أن الغاية منها تتطلع إليه، وتتجلى أمام عينيه، وهو ما يسميه البلاغيون ببراعة الاستهلال فى قوله[3]:

"يقبل كذا، متع الله ببيان قلمها المؤازر، وحكمها التى ترمقها النجوم بطرف متخازر، وكلمها التى تبيت القرائح دون أبكارها مشدودة المآزر".

أما الرثاء فهو من الفنون التى جود فيها الشعراء، لأنه تعبير عن خلجات قلب حزين، وفيه ولوعة صادقة وحسرات حرى، ولذلك فهو من الموضوعات القريبة إلى النفس، لأن الرثاء الصادق تعبير

---

(١) عصر سلاطين المماليك: ٣٥٥/٧، ٣٥٦.

(٢) ألحان السواجع بين البادى والمراجع: ٢٤١/١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٤١/١، ٢٤٢.

مباشر قلما تشوبه الصنعة أو التكلف. فهو إذن فن ينطوى على أدب وثيق الصلة بالقلب، فى مختلف أحواله، ومن أمثلة ذلك رثاء ابن فضل الله العمرى للبرزالى فى وفاته[1]:

تراهم بالذى ألقاه قد علموا ... شط المزار وبان البان والعلم
لهفى عليهم وقد شدوا ركائبهم ... عن الديار ولا يثنى بهم ندم
قد كان يدنيهم طيف يلم بنا ... فالآن لا الطيف يدنيهم ولا الحلم

ويرثى أيضا ابن تيمية بقصيد له وهى[2]:

أهكَذا بالدَّيَاجى ينحجبُ القمر ... ويحبسُ النورَ حتى يذهبَ المطر
أهكذا تمنعُ الشمسَ المنيرةَ ... عن منافع الأرضِ أحياناً فتستتر
أهكَذا الدهرُ ليلاً كله أبداً ... فليسَ يعرفُ لى أوقاته سحر
أهكَذا السيفُ لا تمضى مضاربُه ... والسيفُ فى الفتكِ ما فِى عزمِه خور

وبعد أن كبت أحزانه وتجلد، واستغرق فى المصيبة والأسى المفجع، وانفجرت همومه وأحزانه، وبعد أن أصبح الشعر متنفسه إلى الراحة من ثقل الهموم يقول فى رثاء جلال الدين القزوينى[3]:

أحقًّا بِأنَّ البحرَ خفَّ معينهُ ... وأن وقورَ الطودِ خفَّ رزينه
أحقًّا بِأنَّ السيفَ أغمدَ حدهُ ... بطيفٍ كرى ليست تنامُ جفونه
أحقًّا بِأنَّ الشمسَ غابَ ضياؤُها ... وقد بانَ من بدرِ التمامِ جبينه
أحقًّا بِأنَّ النوءَ أقلعَ نائيا ... وآلى يمينا لاتجودُ يمينُه

وإذا كان فن الرثاء - عند العمرى - على هذا المستوى الرفيع فى رثاء الأصحاب والخلان، فما بالك وهو يرثى نفسه فيقول[4]:

قلتُ لأقْلامِى اكتُبِى وانطَقِى ... فقالَتْ الأقلامُ واسوأتَاه
وشقَّت الألسن من حُزنِها ... وولولَتْ واسوَدَّ وجهُ الدواء

ولعل خير المراثى وأطرفها هى التى قالها الشعراء فى رثاء أنفسهم عند إحساسهم بدنو

---

(١) مسالك الأبصار - أحمد زكى باشا: ٢٢٤/٥، ٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ٣٠٣/٥-٣٠٦.

(٣) المصدر نفسه: ١١٥/٩-١١٧.

(٤) الأدب فى العصر المملوكى: ٧١/٢.

أجلهم أو وقوعهم فى شدة أو أسر أو مرض، وكثير أولئك الشعراء الذين ذكروا الموت وناحوا على أنفسهم وأوصوا أهلهم بما يفعلونه بعد موتهم، أو أرسلوا خيالهم فيما سيكون من أمرهم بعد الموت.

أما الغزل فهو من أهم الفنون وأبرزها وأعلقها بالقلب وأقربها إلى طبيعة الإنسان، وقد لقى الغزل عناية كبيرة من الشعراء، سجلوا فيها عواطفهم وخواطرهم.

يقول ابن فضل الله العمرى من شعره[1]:

شَادِنٌ جَـدَّدَ وجـدى بعدمـا ... صرتُ شيخاً ليس ترضانى العجوزُ
قلـت: جـاوز لى متاعى قـال: قـل ... غيرَ هـذا، وذاك شـئٌ لا يجـوزُ
شربتَ مع غـادةٍ عجـوز طـلاً ... فاستصحبتْ بعـدَ مَنْعِها العادهْ
لَيَّنَهـا السَّكْرُلـى فحينئـذٍ ... سَلَّمْـتُ أنَّ العجـوزَ قَـوَّادهْ

فالغزل لغة العاطفى صور فيه الشعراء أشواقهم وإحساساتهم وسعادتهم وشقاءهم وآمالهم وآلامهم، واستطاعوا أن يرضوا نزعاتهم الفنية بتحبير القصائد الرائعة التى تصور حبهم وتسجل وقائع هواهم، يقول المؤلف[2]:

سَلْ شجِيًّا عـن فـؤادٍ نزَحـا ... وخليًّـا فيهـمَ كيـف صحَـا
ومحبًّـا لـم يـذقْ بعدهُـمُ ... غيرَ تبريحٍ بهـم مـا بَرِحـا
مـزج الدمـعَ بذكـراهُ لهـمْ ... مثـل خَـدَّىْ مَنْ سقـاه القدحـا
زارهُ الطيـفُ وهـذا عَجَـبٌ ... شَبَـحٌ كيـف يلاقـى شَبَحـا

ولذلك كان الغزل الفن الكبير الذى اعتنوا به وصرفوا إليه أكثر شعرهم، فشاع بينهم ودارت عليه قصائدهم، وخصصوا له قصار القصائد وطوالها وشارك الموضوعات الباقية، وينشد المؤلف من شعره[3]:

أأحبابَنـا والعـذرُ منَّـا إليكُـم ... إذا مـا شُغلنـا بالنـوى أن نُودّعـا
أبثكم شوقـاً أبـارى ببعضـه ... حمـام الغنايـا رنَّـةً وتوجُّعـا
أبيتُ سميرَ البـرقِ، قلبـىَ مثلُـه ... أُقضِّى به الليـلَ التمـامَ مروّعـا

---

(١) نصرة الثائر على المثل السائر – للصفدى – تحقيق محمد على سلطانى – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق: ص٣٤٧.

(٢) الوافى بالوفيات: ٢٦٦/٨، ٢٦٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٦٧/٨.

ومن فنون العمرى الشعرية "الألغاز" وهى من الأغراض القديمة المستحدثة فى الأدب العربى، وهى متصلة بفن الوصف وإن كان من شروطها ألا يذكر الملغز به صراحة فى الكلام، كما أشار الصفدى فى نصرة الثائر بقوله: "فاللغز وصاف ماهر يتناول أوصاف الملغز فيه، ثم يسردها سردا فنيا دقيقا مستعينا فى ذلك بالموازنة والجمع بين التشابهات والمتضادات وغيرها"(١).

وقد برز هذا الفن فى العصر المملوكى بروزا ملحوظا، وانتشر بين شعرائه انتشارا قويا، ولا غرابة فى هذا فالألغاز ضرب من ضروب الاخوانيات، وهى كذلك وثيقة الصلة بالدعابة والمرح. وقد زاد من انتشاره تنافس الشعراء فى ميدانه وحرصهم عليه وبخاصة أن هذه الألغاز - أحيانا - كانت تلقى فى مجالس أدبية فتعلقت بها الفنية الشاعرة، وتنفست عن طريقها وهى لا تعدو أن تكون سؤالا وجوابا بين صديقين حميمين.

ومن الأدلة على استخدامها هو قول ابن فضل الله العمرى ملغزا فى زبيدة زوج هارون الرشيد(٢):

أيهَا الفَاضِلُ الذى حَازَ فَضْلاً ... ما عَلَيهِ لِمثلِهِ مِن مَزِيدِ
قد تَدَانَى عبدُ الرحيمِ إليه ... وتَنَاءَى لديهِ عبدُ الحميدِ
أىُّ شَئٍ سُمِّى بهِ ذاتُ خِدْر ... تَائهٍ بالإِمَاءِ أو بالعَبِيدِ
هُوَ وَصْفٌ لِذَاتِ سِترٍ مَصُونٍ ... وَهْىَ لم تَخْفَ فى جَمِيعِ الوُجُودِ

وفى رسالة أخرى كتب جوابا يرد فيه على رسالة الصفدى ملغزا فى نجم قوله(٣):

دُمْتَ خَلِيلِى سَائِرَ الذِّكْرِ ... مثلَ الذِى أَلْغَزْتَ فى القَدْرِ
بَعَثْتَهَا نَجْمِيَّةً قد حَلَتْ ... لَكِنَّهَا من سُكَّرِ الشكْرِ
يطْلُعُ بالنَّجْمِ فأمَّا الذِى ... فى مَطْمَحِ الزُّهْرِ أو الزَّهْرِ
عَجِبْتُ مِنْه كيفَ شَقَّ الدجَى ... وما أَتَى إلَّا مَعَ الفجرِ

وهكذا سار المؤلف فى هذا الفن على درب القدماء من حيث إلقاء اللغز بطريقة السؤال والجواب، بل زاد على ذلك الإشارة إلى الملغز به بالقلب والحذف، والتبديل والتحريف، والتصحيف والتورية وغيرها مبتدئا أحيانا بالثناء والإطراء على اللغز إليه، وأحيانا أخرى يدخل إلى اللغز

(١) الوافى بالوفيات: ٢٦٧/٨.
(٢) المصدر نفسه: ٢٥٦/٨، ٢٥٧.
(٣) المصدر نفسه: ٢٥٥/٨.

مباشرة دون إطراء أو تقريظ.

ومن فنون العمرى التى أوردها فى كتابه أيضا "الدوبيت" وهو نوع من النظم الرباعى اقتبسه شعراء العرب المتأخرون من الفرس، أو الرباعيات التى منها رباعيات عمر الخيام المشهورة، وفى هذا الطراز من الشعر تكون كل قطعة مستقلة استقلالا تاما بقوا فيها.

وللمؤلف من الرباعى المستزاد (أو المذيل) من الدوبيت قوله[1]:

ما قولك فى من ظفرت كفاه ... فى شهرِ صيام

بالغايةِ فى جميعِ ما يهواه: ... حب ومدام؟

آلغاية أن تراهُمَا عيناه ... خوف اللوام

أم يبتسم العمر فى دنياه ... فالعمر منام

وتعد هذه الرباعية أول نموذج تاريخى من هذا الشكل لرباعيات الدوبيت. والرباعية الثانية من الدوبيت شاذة المعنى وهى مراجعة للرباعية الأولى وإعادة لصياغتها بتصرف فى المعنى يقول المؤلف[2]:

لا يقنع صبٌّ ظفرت كفّاهُ ... من كلِ مرام

بالقهوةِ والحبِّ، وإنْ وافاهُ ... فى شهرِ صيام

إلا بكؤوسِ الراحِ أو يغشاه ... للسكرِ منام

فى أطيبِ مرقدٍ يهناه ... من ردفِ غلام

أما موقف المؤلف من السجع فقد التزم به فى رسائله، وترجحت فقراته بين القصر والطول فى أسلوبه، وتنوعت فيه طريقته، حيث يلتزم أحيانا بين كل قرينتين فحسب كما جاء فى المديح، وأحيانا أخرى تتعدد قرائن السجع فى سطوره حتى تصل إلى إحدى عشرة قرينة، والأمثلة على ذلك كثيرة: منها ما جاء فى رسالة ابن فضل الله العمرى إلى الصفدى يقول فيها: "ووقف عليه، وتيمن بمجرد إقباله عليه، وقبله لقرب عهده بيديه، وعده لجلاء المره، وأمره على عينيه وشكره، وإن لم تزل حقائب الشكر محطوطه لديه، لا برح السهد من جنى ريقه المعلل، والطرب بكأس رحيقه

(١) ديوان الدوبيت فى الشعر العربى – د. كامل مصطفى الشيبى – منشورات الجامعة الليبية ١٣٩٢-١٩٧٢م: ص٣٨٦.

(٢) المصدر نفسه : ص٣٨٦.

المحلل، والتيه وحاشاه منه فى سلوك طريقة المذل، والسحاب لا يطير إلا بجناح نعمائه المبلل..."[١].

ولم يقتصر ابن فضل الله العمرى بما عرضه من فنون ولكنه تناول العديد من الفنون الأخرى ويؤكد ذلك ابن شاكر الكبتى بقوله: " وأنشأ كثيرا من التقاليد والمناشير والتواقيع ومكاتبات الملوك وغير ذلك"[٢].

فقد كانوا يسمون ما يكتب عن ملوكهم من الولايات لأرباب السيوف والأقلام "تقاليد" و"تواقيع" و"مراسيم" وربما عبروا عن بعضها با "لمناشير"[٣].

ومن فنون العمرى "التقاليد" وهو ما ذكره القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى قوله: "وهذه نسخة تقليد شريف بنيابة السلطنة، من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله، وهى: الحمد لله مطلق التصرف فيما كان ممنوعا، ومنطق المتصرف ليكون قوله الصواب مسموعا، وموسع نطاق المصرف فى جميع ما تعين أن يكون له مجموعا. نحمده حمدا يعذب ينبوعا، وينبت بمزيد الشكر زروعا، ويدر ضروعا، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتفرع فروعا، وتسكن جموعا وتسكت جموعا، نشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أقوى لأهل الطغيان ربوعا، وأجرى لعيون الزرد عليهم دموعا؛ وأغرى القسى بالحنين إليهم وروعا، وأسقط على لباتهم طيور السهام وقوعا؛ ومهد البلاد بقتلاهم فآمن من خاف وأطعم من تشكى جوعا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تعم درع الفجر بشفقها المخلق صدوعا؛ وسلم تسليما كثيرا..."[٤].

ومن فنون العمرى أيضا "التواقيع" وقد ورد ذكرها فى صبح الأعشى للقلقشندى بقوله: "وهذه نسخة بمشيخة الشيوخ بالخانقاه الصلاحية "سعيد السعداء" بالقاهرة المحروسة باسم الشيخ شمس الدين بن النخجوانى من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله العمرى، وهى: الحمد لله مرقى أوليائه، وموقى أصفيائه، وملقى كلمة الإخلاص لمن تلقى سرها المصون عن أنبيائه. نحمده على مصافاة أهل صفائه، وموافاة نعمنا لمن تمسك بعهود وفائه، وتسلك فأصبحت رجال كالجواهر لا تنتظم فى سلكه

---

(١) الوافى بالوفيات: ٨/٢٦٠-٢٦٣.

(٢) فوات الوفيات: ١/١٥٧-١٦١.

(٣) صبح الأعشى: ١١/٣٢.

(٤) المصدر نفسه: ١١/٤٣٤-٤٣٨، وهناك نسختان أخريان فى التقاليد لابن فضل الله أيضا المصدر نفسه: ١١/٤٣٨، ١٢/٢٠.

ولا تعد من أكفائه، وطلع للدين شمسا يباهى الشمس بضيائه، ويباهل البدر التمام فيتغير تارة من حجله وتارة من حيائه. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نعدها ذخرا للقائه، وفخرا باقيا ببقائه، راقيا فى الدرجات العلى بإرتقائه..."[1].

ومن الفنون التى أنشأها مؤلف الكتاب "المراسيم" وقد ورد ذكرها فى صبح الأعشى للقلقشندى بقوله: "وهذه نسخة مرسوم شريف بنيابة قلعة دمشق المحروسة، من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله رحمه الله، وهى: الحمد لله مشرف القلاع، ومصرف رجالها فى الامتناع، ومعرف من جاد لها أن الشمس عالية الارتفاع. نحمده حمدا يشنف الأسماع، ويشرف الإجماع، وتحلق فى صعوده الملائكة أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نرجو بها لما بقى من قلاع الكفر الاقتلاع، واستعادة ما قر معهم من قرى وضاع من ضياع؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى حمى به درة الإسلام من الارتضاع، وصان به حوزة الحق أن تضاع، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة ما أسبل لليل ذيل وامتد للشمس شعاع، وسلم تسليما كثيرا..."[2].

ومن الفنون التى أوردها المؤلف أيضا "المناشير" وقد ذكرها القلقشندى بقوله: "وهذه نسخة منشور من ذلك لمن لقبه سيف الدين، من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله، وهى: الحمد لله الذى جرد فى دولتنا القاهرة سيفا ماضيا، ووفق من جعل فعله لمزيد النعم متقاضيا، وأسعد بإقبالنا الشريف من أصبح به سلطانه مرضيا وعيشه راضيا. نحمده على نعمه التى تسر مواليا وتسوء معاديا، وتقدم من أوليائنا من يقوم مقامنا إذا سمع مناديا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة كم أروت فى موارد الوريد من الرماح صاديا، وأورت هاديا، ورفعت من أعيان الأعلام هاديا؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أنزل القرآن بصفاته حاليا، وأحلنا ببركة المشاركة فى اسمه المحمدى مكانا عاليا. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يبرح كل لسان لها تاليا، وسلم تسليما كثيرا..."[3].

ومن الفنون التى أنشأها العمرى أيضا "الصدقات" وتعنى "أنه قد جرت العادة إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تكتب له خطبة صداق تكون فى الطول

---

(١) صبح الأعشى – القلقشندى: ٣٧٠/١١-٣٧٢، وهناك نسختان أخريان لابن فضل الله أيضا فى المصدر نفسه: ٦١/١٢، ٤١/١٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢٦/١٢-٣٠، وهناك ثلاثة مرسومات أخرى لابن فضل الله فى المصدر نفسه: ١٣٢/١٢، ٢٠٨/١٢، ٢٦٢/١٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٧١/١٣، ١٧٢.

والقصر بحسب صاحب العقد، فتطال للملوك، وتقصر لمن دونهم بحسب الحال"[١].

ومن أمثلة ذلك ما ذكره القلقشندى: "وهذه نسخة صداق المقر الشريف إبراهيم بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد بن قلاوون، من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله، وهى: الحمد لله مغنى الملوك بالمظافرة، ومكثر زينة الأسماء بنجومهم الزاهرة، ومكبر أقدار الأولياء بما تمت النعمة به من شرف المصاهرة. نحمده على نعمه التى شرفت قدرا، وصرفت أمرا، وأطلعت من هالة البدر المنير شمسا لا تتخذ غير الأفق خدرا، ولا تتمنى الليالى والأيام إلا أن تقلدها من الأشعة ياقوتا ومن الكواكب درا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجمع من حماة الدين نسبا وصهرا، وترفع فى أنباء الأبناء لها حسبا وذكرا، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى عصم به، وخص صفوة الخلق فى المصاهرة باختلاط نسبهم بنسبه؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تستوثق بها الأسباب، وتستوسق الأنساب، وتبقى أنوارها بملك أبناء الملوك كلمة باقية فى الأعقاب؛ وسلم تسليما كثيرا..."[٢].

ويذكر المؤلف أيضا من فنونه "التقاريظ" وتعنى أنه إذا صنف فى فن من الفنون أو نظم شاعر قصيدة فأجاد فيها أو نحوذ لك، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقريض والمدح، ويأتى كل منهم بما فى وسعه من البلاغة فى ذلك.[٣] ومن أمثلة هذا الفن ما ذكره القلقشندى: "ومن ذلك ما كتب به المقر الشهابى بن فضل الله على قصيدة ميمية، للشيخ غرس الدين خليل الصفدى المعروف بالصلاح الصفدى، مدح بها الأمير سيف الدين ألجاى الدوادار الناصرى، فى شهور سنة تسع وعشرين وسبعمائة، وهى: وقفت على هذه القصيدة التى أشرقت معانيها فكادت ترى، وتمكنت قوافيها فاستمسك بها الأدب لما كانت الميمات فيها كالعرا؛ فوجدتها مشتملة من البلاغة بوزنها على البحر المحيط، لطيفة لا تقاس بأمثالها من الكلام المركب لأنها من البسيط..."[٤].

ومن "التفاويض" يذكر القلقشندى: "أنه لم يقف على تفويض لقاضى من كتابة من تقدم سوى تفويض واحد من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله، كتبه لقاضى القضاة "شهاب الدين بن المجد عبد الله" بالشام المحروس، على مذهب الإمام الشافعى. وهذه نسخته: الحمد لله على التمسك بشرائعه،

---

(١) صبح الأعشى – القلقشندى : ٣٠٠/١٤.

(٢) المصدر نفسه: ٣٠٨/١٤-٣١٠، وهناك نسختان أخريان لابن فضل الله فى المصدر نفسه: ٣١١/١٤، ٣١٣/١٤.

(٣) المصدر نفسه: ٣٣٥/١٤.

(٤) المصدر نفسه: ٣٣٦/١٤، ٣٣٧.

والتنسك بذرائعه، والتوسل إلى الله بتأييد أحكام شارعه، والتوصل بـه إلى دين يقطع بـه من الباطل أعناق مطامعه. نحمده حمدا يأخذ من الخير بمجامعه، ويضاهى الغمام فى عموم منافعه، ويباهى السيف بقلم الشرع فى قهر عاصيه وحماية طائعه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه شهادة تؤدى للإيمان ودائعه، وتهدى إلى صيانة مشارعه، وتقيم من العلماء كل شهاب تقسم الأنوار بلوامعه، وتقسم الأبصار ببدائعه، وتجول الفتاوى فى صدره الفسيح وتتجول فى شوارعه، وترهف منهم للحكم العزيز كل قلم يدل السهم على مواقعه، وينبه الرمح من مقاتل الأعداء على مواضعه، ويسرى غمامه إلى الأعداء بصواعقه، وإلى الأولياء بهوامعه؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أسعد الأمة بطالعه، وأصعد الأئمة فى مطالعه..."[1].

ومن فنون العمرى أيضا "العهود" وقد ذكره القلقشندى بقوله: "وهذه نسخة عهد كتب بها المقر الشهابى بن فضل الله عن الملك الناصر "محمد بن قلاوون" للملك الأفضل "محمد ابن المؤيد عماد الدين إسماعيل" بسلطنة حماة أيضا، فى رابع صفر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة. وهو آخر من ملكها من بنى أيوب، وهى: الحمد لله الذى أقربنا الملك فى أهلة أهله، وتدارك مصاب ملك لولا ولده الأفضل لم يكن له شبيه فى فضله، ووهب بنا بيت السلطنة من أبقى البقايا ما يلحق به كل فرع بأصله، ويظهر به رونق السيف فى نصله. نحمده على ما أفاض بمواهبنا من النعم الغزار، وأدخل فى طاعتنا الشريفة من ملوك الأقطار، وزاد عطايانا فأوضحت وهى ممالك وأقاليم وأمصار؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أفلح من مات من ملوك الإسلام عليها، وحرض بها فى الجهاد على الشهادة حتى وصل إليها..."[2].

"والمسامحات" فن آخر من فنون العمرى ذكرها القلقشندى بقوله: "وهذه نسخة توقيع بالمسامحة فى جميع المراكز بما يستأدى على الأغنام الدغالى الداخلة إلى حلب، وأن يكون ما يستخرج من تجار الغنم على الكبار منها خاصة من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله، مما كتب به فى شهور سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، وهى: الحمد لله ذى المواهب العميمة، والعطايا التى لا تجود بها يد كريمة، والمنن التى عوضنا منها عن كل شئ بخير منه قيمه، والمسامحة التى ادخر لنا بها عن كل مال حسن مآل وبكل غنم غنيمه. نحمده على نعمه التى غدت على كثرة الإنفاق مقيمه؛ ونشهد أن

---

(١) صبح الأعشى - القلقشندى: ١٢/٤٢-٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ١١/١٨٣-١٨٧.

سيدنا محمدا عبده ورسوله أكرم من سمح وسامح فى أمور عظيمة. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة مستديمة، وسلم تسليما كثيرا..."[١].

وبعد أن تكلم العمرى عن الأنهار، وخص منها نهر النيل ببحث جميل؛ وأشار فيه إلى أصوله، ومنابعه، واكتشاف المسلمين لهذه المنابع قبل الفرنجة، ومحاولة الملوك من بنى أيوب أنفسهم - كالملك الصالح نجم الدين أيوب - معرفة ذلك، ثم انتقل من الكلام عن الأنهار إلى ما فى معمورة الأرض من البحيرات المشهورة "فيقسمها نصفين نصفا شرقيا وآخر غربيا، فالنصف الأول منها وهو الشرقى فيه من البحيرات الكثيرة كبحيرة سرنك بالهند وخوارزم وتهامة وغيرها، والنصف الثانى وهو الغربى فمنها بحيرات النيل الثلاثة بحيرتان تنصب فى أوله ثم بحيرة الغيوم، وكذلك بحيرة دمشق وانطاكية وحمص وغيرها"[٢].

وينتقل العمرى فى حديثه إلى المساجد فيذكر المساجد الثلاثة وهى المسجد الحرام ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى. فيبدأ بالحديث عن الكعبة البيت الحرام وهو أول بيت وضع للناس ورفع على قديم الأساس بنى مثالا للبيت المعمور ودعى إليه كل مأمور، وأذن إبراهيم صلوات الله إليه بالحج ودعا إليه الناس فأتوه من كل فج، وفى هذا يقول الزمخشرى "مكة وبكة لغتان فقيل مكة البلد وبكة موضع المسجد وقيل بكة موضع البيت ومكة وما حوله وقيل بكة البيت والمسجد ومكة الحرم كله"[٣].

وقيل "إن الكعبة بنيت فى الدهر خمس مرات إحداهن بناء الملائكة أو آدم أو شيث على ما تقدم، والثانية بناء إبراهيم، والثالثة بناء قريش، والرابعة بناء عبد الله بن الزبير، والخامسة فى زمن عبد الملك بن مروان، وتولى البناء الحجاج بن يوسف الثقفى"[٤].

وقد روى الأزرقى بأسانيد متفرقة "أن النبى صلى الله عليه وسلم كسا الكعبة ثم كساها أبو بكر، وكساها عمر من بيت المال، وكساها عثمان ومعاوية وعبد الله بن الزبير ومن بعدهم[٥].

ويستشهد العمرى بقول تبع لما كسا البيت[٦]:

---

(١) صبح الأعشى - القلقشندى: ٣٦/١٣-٣٨.

(٢) مسالك الأبصار - أحمد زكى باشا: ٧١/١، ٧٢.

(٣) المصدر نفسه: ٩/١، ٩١.

(٤) المصدر نفسه: ٩٣/١-٩٦.

(٥) المصدر نفسه: ١٠١/١، ١٠٢.

(٦) المصدر نفسه: ١٠٢/١.

وَكَسَوْنا البيتَ الَّذِي حرَّم اللـ ـهُ مُلَاءً مُعَضَّدا وبُرُودا
فأَقَمْنا به من الشهر عَشْراً وجعلنا لِبَابِه إِقْلِيدَا

وفى صفة الكعبة يقول: "مربعة البنيان فى وسط المسجد ارتفاعها من الأرض سبعة وعشرون ذراعا وعرض الجدار وجهتها الآن أربعة وعشرون ذراعا وهو الذى فيه بابها وعرض مؤخرها مثل ذلك وعرض جدارها الذى يلى اليمن وهو ما بين الركن اليمانى والركن العراقى وهو الذى فيه الحجر الأسود عشرون ذراعا وإلى وسط هذا الجدار كان يصلى النبى صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة، وعرض جدارها الذى يلى الشام وهو الذى بين الركن الشامى والركن الغربى أحد وعشرون ذراعا وميزاب الكعبة على وسطه يسكب فى الحجر ومن أصل هذا الجدار إلى أقصى الجدار ستة عشر ذراعا، وعرض باب الحجر الشامى خمسة أذرع إلا شئ يسير، وعرض بابه الغربى ستة أذرع إلا شئ يسير وجدار الحجر مدور من بابه الشامى إلى بابه الغربى كالطيلسان، وعرضه ذراع وارتفاعه من الأرض أربعة أشبار، والحجر الأسود فى الركن العراقى المقابل لزمزم وهو سبعة أشبار من الأرض، وباب الكعبة على أربعة أذرع من الأرض وعلوه ستة أذرع، وعرضه أربعة أذرع وما بين الباب والحجر الأسود أربعة أذرع ويسمى ذلك الموضع الملتزم"[1].

وقد خص العمرى الكعبة بأوصاف كثيرة ومنها التى خصها الله سبحانه وتعالى بها، مؤيدا قوله بكثير من الآيات القرآنية التى قيلت فى فضلها كقوله تعالى: "فول وجهك شطر المسجد الحرام"[2]. وبالحديث النبوى الشريف ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام"[3].

وينقل لنا المؤلف بعض الأشعار التى قيلت فى بئر زمزم وهى سقيا إسماعيل وهمزة روح القدس جبريل، ينشد المسعودى قوله[4]:

زَمزمت الفُرس على زمزم وذاك فى سَالِفِها الأقدم

ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن الصفا والمروة فيذكر "أن الصفا حجر أزرق عظيم فى أصل جبل أبى قبيس قد كسر بدرج إلى آخر موضع الوقوف. وأكثر ما ينتهى الناس منها إلى اثنتى عشرة درجة

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ١٠٢/١، ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٨/١، سورة البقرة – الآية ١٤٩.
(٣) المصدر نفسه: ١٠٩/١.
(٤) المصدر نفسه: ١١٠/١.

أو نحوها، وأما المروة فحجر عظيم إلى أصل جبل متصل بجبل قيقعان كأنه قد انقسم على جزأين، وبقيت بينهما فرجة، يبين منها درج عليها إلى آخر الوقوف. وذرع ما بين الصفا والمروة وهو المسعى سبعمائة ذراع وثمانون ذراعا"[١].

ومن مساجد مكة التى أشار إليها المؤلف مسجد الخيف وهو على يمين المتوجه من مكة إلى عرفات، ومسجد المزدلفة، ومسجد نمرة ويسمى مسجد إبراهيم، ويقال إن إبراهيم الخليل عليه السلام بناه، ومسجد عائشة وهو بالتنعيم عند أول الحرم، ومسجد ميمونة رضى الله عنها إحدى أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم[٢].

أما المسجد النبوى فيقول عنه السهيلى: "بنى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وسقف بالجريد وجعلت قبلته من اللبن ويقال بل من حجارة منضودة بعضها على بعض وحيطانه باللبن وجعلت عمده من جذوع النخل فنخرت فى خلافة عمر فجددها"[٣].

وعن خارجة ابن زيد، أحد فقهاء المدينة السبعة، قال: "بنى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مسجده سبعين ذراعا فى ستين ذراعا أو يزيد، فلما كان عثمان زاد فيه جعل طول المسجد مائة وستين ذراعا وعرضه مائة وخمسين، وجعل أبوابه ستة، كما كانت فى زمن عمر. وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه"[٤].

ومن مساجد المدينة أيضا مسجد قباء ذكر ابن اسحاق أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسسه لبنى عمرو بن عوف ثم انتقل إلى المدينة[٥].

ويذكر السهيلى أن مساجد المدينة كانت تسعة سوى مسجد النبى (صلى الله عليه وسلم) كلهم يصلون بآذان بلال[٦].

وهناك يوجد البقيع وهو مدفن أهل المدينة النبوية، وفيه قبة العباس بن عبد المطلب عم النبى (صلى الله عليه وسلم)، وفيها معه الحسن بن على، وفيه قبة عثمان بن عفان، وقبة مالك بن أنس إمام دار الهجرة[٧].

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ١١٢/١.

(٢) المصدر نفسه: ١١٥/١-١٢٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٥/١.

(٤) المصدر نفسه: ١٢٦/١، ١٢٧.

(٥) المصدر نفسه: ١٢٩/١.

(٦) المصدر نفسه: ١٣٣/١، ١٣٤.

(٧) المصدر نفسه: ١٣٤/١، ١٣٥.

أما المسجد الأقصى فهو مهد الأنبياء ومتعهد الأولياء، وثانى البيت الحرام فى البناء، وأول القبلتين، فيتحدث عنه المؤلف وصفته وما اشتمل عليه من المزارات على ما استقر عليه بناؤه إلى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، وعنه يقول أحمد زكى باشا فى مقدمة مسالك الأبصار "سافرت إلى فلسطين لتطبيق ما أورده المؤلف عن المسجد الأقصى من البيانات الفنية المعمارية والإصلاحية الهندسية البنائية التى لم يجر بها قلم كاتب قط، لا من العرب ولا من العجم قديما وحديثا"[1].

كما يتحدث أيضا مؤلف الكتاب عن صفه قبة سليمان عليه السلام ومكانها بالجانب الشمالى من الحرم، وعن صفة المجلس الذى بناه سليمان عليه السلام ويسمى الآن إسطبل سليمان، ويذكر أيضا قبر الخليل عليه الصلاة والسلام وما جاوره من قبور بنيه والأزواج وكلها داخل ذلك السور وفى حدود ذلك المكان المنور[2].

ثم ينتقل المؤلف للحديث عن مسجد دمشق وصفته فيذكر قول الشافعى: "عجائب الدنيا خمس: منارة ذى القرنين، والثانية أصحاب الرقيم بالروم، والثالثة مرآة ببلاد الأندلس معلقة على باب مدينتها الكبيرة، والرابعة مسجد دمشق، والخامسة الرخام والفسيفساء فإنه لا يدرى له موضع"[3].

ولم يقتصر المؤلف على ذلك فحسب بل انتقل للحديث عن بقية المزارات الأخرى فيقول: وأما سائر المزارات فكثيرة جدا لا تدخل تحت الحصر، ولا يحيط بها قلم الإحصاء، وإنما نذكر منها ما حضرنا ذكره فى هذا الوقت، مما هو ببلاد الشام، على ما يغلب الظن صحته، لا كما يزعمه كثير من الناس فى نسبه أماكن لا حقيقة لها"[4].

ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "قبر مالك بن الأشتر النخعى قيل إنه على باب مدينة بعلبك من الشمال والصحيح أنه بالمدينة، وقبر حفصة زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) قيل إنه ببعلبك والصحيح أنها أم حفص أخت معاذ بن جبل فإن حفصة ماتت بالمدينة، ودير إلياس النبى (عليه السلام)، ومشهد إبراهيم (عليه السلام) وقبر أيوب (عليه السلام) وقبر زيد بن حارثة، وعبيد الله بن رواحة، والحارث بن النعمان، وعبد الله بن سهل، وسعد بن عامر القيس، وأبى دجانة الأنصارى استشهدوا رضى الله عنهم فى غزوة مؤتة، وقبر شعيب (عليه السلام)"[5].

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: مقدمة الكتاب.

(٢) المصدر نفسه: ١/١٧٨-١٨١.

(٣) المصدر نفسه: ١/٢١٠.

(٤) المصدر نفسه: ١/٢٣٤.

(٥) المصدر نفسه: ١/٢٣٤-٢٣٩.

وفى مشهد الحسين بعسقلان دفن رأس الكامل صاحب ما فارقين وفى ذلك قال ابن المهيار الكاتب[١]:

أين غازٍ غَزَا وجَاهَدَ قوماً ... أثخنوا بالعراقِ والمشرقيْنِ
لم يَشِنْهُ أنْ طِيفَ بالرأسِ منه ... فله أسوة برأس الحُسينِ
وافق السِّبط فى الشهادة والدف ... ن وقد حاز أجرُه مرتينِ

ويستعرض المؤلف أهم الموضوعات فى كتابه فيتحدث بعد ذلك عن البيوت المعظمة عند الأمم فيقول: "وهى تسعة بيوت فى الأرض يرون أن كلا منها هيكل كوكب من الكواكب السبعة السيارة لاعتقادها أن الكواكب أجسام حية ناطقة تجرى بأمر الله فى كل ما يحدث فى العالم فقربوا إليها القرابين لتنفعهم فلما رأوها تخفى فى النهار وبعض أحايين الليل عملوا لها تماثيل وبنوا لها البيوت والهياكل ظنا أنهم إذا عظموا تلك التماثيل الموضوعة لها تحركت الأجسام العلوية بمرادهم"[٢].

ويتحدث أيضا عن هياكل الأقدمين فيقول: "وأما بيوت اليونان فهى ثلاثة هياكل وهى مشهورة فى العالم .. أولها بيت بأنطاكية داخل مدينتها على يسرة المسجد الجامع، وثانيها هو الهرم على بعد من الفسطاط، وثالثها بيت المقدس"[٣].

أما هياكل الصقالبة فذكر المؤلف أنها بيوت ثلاثة أولها بيت فيه آثار مرسومة يدل على الكائنات، وثانيها على الجبل الأسود تحيط به مياه عجيبة ذوات طعوم مختلفة، وثالثها يحيط به خليج من البحر فى وسطه قبة عظيمة بها صنم على صورة جارية[٤].

وهناك أيضا هياكل الصابئة وكانت تسمى بأسماء كالعلة الأولى وهيكل العقل، وهيكل الصورة، وهيكل النفس، وهياكل الكواكب والنيرين على أشكال مختلفة من التسديس والتثليث والتربيع، وهيكل فى أقاسى الصين[٥].

كما تناول المؤلف فى كتابه الحديث عن بيوت النيران فقال: "وأما بيوت النيران فأول من ذكرها أفريدون قال لأنه زعم أنها من جنس الكواكب النورية وبالنور صلاح العالم لأنها عندهم أصل

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ١/٢٤٠، ٢٤١.
(٢) المصدر نفسه: ١/٢٤٣.
(٣) المصدر نفسه: ١/٢٤٥، ٢٤٦.
(٤) المصدر نفسه: ١/٢٤٦، ٢٤٧.
(٥) المصدر نفسه: ١/٢٤٧، ٢٤٨.

كل حى، ومبدأ كل تمام لأنها تجذب الحيوان إليها كالفراش الطائر بالليل... وبيوتهم المشهورة خمسة"[١].

وما يتبع هذه الهياكل من الآثار المشهورة فى الأرض نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "مدينة اصطخر وهى مدينة عجيبة البناء من بناء سليمان عليه السلام، وقصر سنداد وهو بالعراق وكان مسكن آل محرق، وقصور الحيرة بين العراق والشام، والخورنق والسدير وهما من أشهر الآثار، ومدينة تدمر بين العراق والشام وما فيها من عجائب البناء وكبار العمد، ومنازل ثمود بين الحجاز والشام وبيوتهم المنحوتة فى الجبال باقية إلى الآن، وسد مأرب وهو ببلاد سبأ من اليمن، وقصر عمدان بصنعاء اليمن وهو من أشهر الآثار وأظهر المعالم كان مسكن التبابعة من حمير، وقصر العباس، وقصر البصرة وكان قبل أن تختط البصرة منزلا تنزله الأكاسرة فى متصيداتهم وتخرج إليه الأساورة فى متنزهاتهم وتهدم حتى جدده الحجاج فعرف به، وقصر الكوفة وقد هدم ولم تبق منه باقية"[٢].

ومن هذه الآثار المشهورة قصر بدمشق لبنى أمية قرأ عليه إسماعيل بن أبى هاشم بعض الأبيات[٣]:

ليتَ شِعْرِى ما حالُ أهلك يا ... قَصْرُ وأيْنَ الذين عالَوْا بِناكَا
وما لأرْبابِك الجبابِرَةِ الأمـ ... ـلا ك شَادُوك ثم حَلُّوا سِوَاكَا
أَلِزُهْدٍ يا قَصْرُ فيك تحامَوْ ... ك ألا تُبْتَنَى ولستَ هُنَاكَا
ليتَ شِعْرِى وليتنى كنتُ أدْرِى ... ما دهَاهُمْ يا قصرُ ثُمَّ دهَاكَا

وجاء فى حديث ابن أبى هاشم أيضا أنه قرأ بحلوان مصر على قصر لعبد العزيز بن مروان[٤]:

أيْنَ ربُّ القَصْرِ الذى شيَّد القصـ ... ـر وأين العَبِيدُ والأجنادُ؟
أيْنَ تلكَ الجُموعُ والأمر والنهـ ... ـىُ وأعوانُهم وذاك السَّوادُ؟
أينَ عبدُ العزيزِ أين ابن مَرْوا ... نَ وأينَ الحُماةُ والأولادُ؟

وأخيرا أتى فى كلامه عن الآثار المشهورة فى أقطار الأرض إلى الحديث عن الديارات والحانات فتكلم عن ديارات العراق، والحيرة، والشام، وفلسطين، واليمن، ومصر ذاكرا أنه كان

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٢٤٩/١، ٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧٢/١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٧٣/١، ٢٧٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧٤/١.

بمصر إلى زمانه عدد كبير من الأديرة، وصف منها سبعة عشر ديرا، كانت من خير متنزهات الدنيا قال المؤلف: "وأما ما بلغنا ذكره من الديارات المشهورة الواردة فى أشعار العرب وغيرهم، أو كان قد دخلها أحد من الخلفاء والأمراء والأدباء والشعراء المشهورين، أو ورد لذلك الدير ذكر فى شعر قديم أو عصرى"[1].

أما عن الحانات فيقول عنها المؤلف: "وكانت سوى هذه الديارات حانات بمواضع شتى. لها أخبار، وفيها أشعار، وأشهرها ما نذكره هنا ونلحقه من الديارة بأمثاله، ونضيفه منها إلى أشكاله"[2].

ومن هذه الحانات "حانة الطائف وكانت فى الجاهلية، وحانة بنى قريظة، وحانة هجر، وحانات الحيرة وهن أربع حانات (حانة عون، وحانة دومة، وحانة جابر، وحانة شهلاء)، وحانات العراق وهن أربع حانات (حانة طيزناباذ، وحانة قطربل، وحانة الشط، وحانة خويث) وحانات الشام وهى اثنتان (حانة عزاز، وحانة هشيمة)"[3].

وبعد، فهذه - فى رأينا - هى أهم الموضوعات العلمية والأدبية التى أوردها العمرى فى كتابه تبدو فيها شخصية المؤلف واضحة كل الوضوح لما ذكره من شعر ونثر، فالرسائل الأدبية التى أوردها ابن فضل الله العمرى فى كتابه تعد من أهم فنون النثر وأظهر سماتها عنده، وهى تدل فيما تدل على تمكنه من فن الكتابة أكثر من تمكنه من فن الشعر ويؤكد رسوخ أقدامه فى ميادين الثقافة والمعرفة بكل أنواعها، كما تشهد بقدرته على خلق شخصية متميزة لعصره، وهو الذى قال فيه الصفدى: "أما نثره فلعله فى ذروة كان أوج الفاضل لها حضيضا ولا أرى أحدا يلحقه فيه جودة وسرعة عمل لما يحاوله فى أى معنى أراد وأى مقام توخاه"[4].

وفوق هذا كله جاءت رسائله فى عبارة سهلة وصورة واضحة ومعنى جلى، مما يؤكد لنا أصالته الأدبية، وتجعل رسائله سجلا أدبيا وتاريخيا لهذه الفترة من تاريخنا العربى.

وعن نظمه يقول العلماء إنه وسط، لا يبلغ فيه مبلغ نثره متانة ورصانة[5]. ومهما يكن من

---

(١) مسالك الأبصار - أحمد زكى باشا: ٢٧٧/١.

(٢) المصدر نفسه: ٤١٧/١.

(٣) المصدر نفسه: ٤١٧/١-٤٢٧.

(٤) الوافى بالوفيات: ٢٥٣/٨.

(٥) الأدب فى العصر المملوكى: ٧٠/٢.

أمر فقد اعتمد العمرى فى انتقاء الآثار التى أوردها، شعرا كانت أم نثرا على ذوق أدبى رفيع، مكنه من أن يحسن الاختيار، وهذا الذوق إن دلنا على شئ فإنما يدلنا على حذق العمرى واستعداده الطبيعى وطول إكبابه على العلوم والمعارف المختلفة قراءة وتفهما، وتعمقا ثم تذوقا من بعد ذلك.

ومن هنا كان المؤلف حريصا كل الحرص فى انتقاء مختاراته الشعرية والنثرية، والالتزام بوحدة الموضوع فإذا عرض شعرا أو نثرا فى فن من الفنون، كان اهتمامه يدور حول وحدة الموضوع فى نفس موضوع الفن بحيث يستطيع القارئ أن يستمتع بكل ما يقدمه له وأن يستوعبها فى سهولة ويسر. بل ظل محتفظا بحقه - ككاتب موسوعى وأديب ذواق - أن يعرض فى موسوعته مختارات شعرية ونثرية لا تقل روعة عن تلك التى عرضها كثيرون من كتاب الموسوعات الأخرى.

وهكذا برع ابن فضل الله العمرى فى استخدامه لكثير من الوسائل الفنية فى عرض أفكاره، وتزيين معانيه، ومن أبرز مقومات الأسلوب عنده الاعتماد على الخيال فى تصوير المعانى وتجسيدها، والاعتماد على البديع بكل ألوانه من براعة استهلال، وتورية، وسجع ملتزم بين كل قرينتين تقريبا، وجناس، وطباق، ومراعاة نظير، وإلى اقتباس من القرآن الكريم.

كما تتجلى هذه الوسائل أيضا فى اختيار الألفاظ الجزلة والأساليب الملائمة لهذه الفنون والمنسجمة مع معانيه، والمعبرة عن عواطف صاحبها هذا بالإضافة إلى تميز مؤلفنا عن غيره، ولعل ما ساعده على ذلك هو سعة إطلاعه، وغزارة معلوماته ولما يتمتع به أيضا من وثقافة أدبية واسعة، وحافظة وذاكرة قوية، هذا إلى جانب عمله فى ديوان الإنشاء، والأسلوب الأدبى الذى عكس فيه ثقافته الواسعة، وخبرته فى مجال الكتابة والإنشاء مما زاد من قيمة الكتاب الأدبية والعلمية.

الباب الرابع

تميم بن المعز

دراسة تحليلية

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبى ونعم الوكيل

وأما جماعة المصريين ممن ذكر بن سعيد ومن نكب عن طريقه وما هو بعيد ومن جاء على ذيل تلك الطبقة، وأتوا تلويهم جيادهم المستبقة إلى أهل عصرنا الذين هم أحياء يرزقون وبلغاء ينطقون، كذا بنا فى الاستيفاء بجهد الطاقة لمحاسن كل شاعر، ولم تقنع بما قنع به ابن سعيد من شذوذ تلك النتف، ولم تعد النظر إلى من عدل عن الغرض على عادتنا فيما سلف. فمنهم تميم ابن المعز معد بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدى عبيد الله[1]، تشبه بابن عمه ابن المعتز وتشبث بذيله[2]، فما قدر أن يبتز وظهر بما نقض به قصائده الغر وفرائده الدر كامن ما بين البيتين من قديم سوالف الأجن، وعظيم طوارق المحن، إلا أنه ما استطاع مطار ذلك القشعم، ولا دخل مضيق ذلك الأرقم، ولا أتى بمثل تلك الأوابد التى سارت، واللوائد التى ثارت، ولا كان معه إلا كما يجيب القائل الصدى، ويجول المقرف مع السابق فى المدى، هذا مع كونه المغرق الجواد، والمغدق العهاد، والمشرق نورا على غيهبه، وكان به مثل فلق الصباح مغربه، والمطلق العنان فى التشبيه والأوصاف، والمورق البيان فى التسوية والإنصاف، وهو وإن لم يزاحم ابن المعتز فإنه لا يقع دون مطاره، ولا يقصر ذهبه الموزون عن قنطاره، على أنهما سمقا من جرثومة، واستقى من أدومه، وسبقا من طينه بالمسك محتومه.

وفوق هذا كله، نرى مؤلف مسالك الأبصار يعنى عناية عظيمة بمصر من جميع جوانبها،

---

(١) وردت ترجمة تميم بن المعز فى مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٢/١٢-١١. وهو الأمير تميم بن المعز لدين الله بن المنصور بالله بن القائم بأمر الله بن عبيد الله المهدى العلوى الفاطمى؛ حيث ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهما. ويتفق المؤرخون والكتاب فى تسلسل نسبه حتى جده القائم، لكنهم يختلفون فى نسبة القائم بأمر الله إلى عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية، وكذلك يختلفون فى نسب المهدى فيذهب بعضهم إلى القول بأنه لايمت إلى الخلفاء الفاطميين بنسب أو قرابة، وينسبونه إلى عبيد الله بن ميمون القداح الديصانى. لكن أكثرهم إنصافا للواقع والتاريخ يؤكدون على صحة نسبه إلى آل البيت، ويثبتون بنوته الجسمانية للأئمة المستورين. انظر فى مصادر ترجمة تميم:

– يتيمة الدهر: ٤٣٦/١، الحلة السيراء ٢٩١/١، وفيات الأعيان: ٣٠١/١، حسن المحاضرة ٥٦٠/١، أعيان الشيعة: ٢٠٨/١٤-٢٢٤ ، الأعلام – الزركلى: ٨٨/٢، مقدمة ديوان تيميم، ط دار الكتب: ص (هـ-ف)، النجوم الزاهرة: ٧٥/٤-٧٨، بدائع الزهور فى وقائع الدهور: ١٨٧/١-٢٣٦.

(٢) وكان فيهم كابن المعتز فى بنى العباس: غزارة علم.. وحسن تشبيه وإبداع تخييل، وكان يقتفى آثاره، ويصوغ على مناحيه فى شعره أشعاره، فهو دائما يقرن بابن المعتز العباس، لما بينهما من تشابه، فكلاهما من بيت خلافة، وكلاهما مغرم بالتشبيهات والاستعارات وغيرها من فنون البديع، وكلاهما دافع عن عقيدته وحق ذويه فى الخلافة.

ومنها جانب الشعر. ولذا أمدنا بقائمة طيبة لأسماء شعراء من المصريين بلغ مجموعهم نحوا من خمسين، وأولهم تميم بن المعز.

لقد كان تميم من الشعراء الغزليين، وصار مجلسه مجالا للغزل المكشوف والمتعة المحرمة التى عكف عليها، وحام حول مغانيها، فالحياة اللاهية تملأ وجوده وتسد فراغه، وتسكن همومه، ووجد الكثير من الجوارى والغلمان فى قصره، فاندفع فى ميدان الهوى يروى شبابه الثائر يحس القارئ جماله، ويلمس حيويته حيث اعتاد تميم أن يقرن الصدغ بالعقرب، والخدود بالتفاح كما جاء فى قوله[1]:

ما بانَ عُذرِى فيه حتى عَذّرا ... ومَشَى الدُّجى فى خدّه فتحيّرا

همّت تقبّله عقاربُ صُدغِه ... فاستلّ ناظره عليها خِنجَرا

والله لولا أن يقال تغيّرا ... وصَبَا وإن كان التصابى أجدَرا

لأعدتُ تفّاح الخدود بنفسَجا ... لَثْما وكافورَ الترائب عَنْبَرا

واستسلم تميم إلى حكم الله الذى حرمه الملك، بعد أن صارت ولاية العهد لأخيه عبد الله، ثم صارت لأخيه نزار الذى لقب بالعزيز، ثم ما لبث أن سعى الواشون بالوقيعة بينه وبين أخيه فكان نتيجة ذلك أن نفاه العزيز إلى الرملة، وأخذ تميم يشكو الغربة والفراق، كل هذه العوامل جعلت تميم بمعزل عن كل عمل عام، بل أهمل إهمالا شديدا جعله يسلو عن ذلك باللهو والمجون، ويجأر بالشكوى من الناس والزمان، ويفرغ همومه فى شعره فيقول[2]:

أما والذِى لا يملِك الأمرَ غيره ... ومن هو بالسر المكتّم أعلمُ

لئِن كان كِتمان المصائبِ مؤلِما ... لَأعدتُها عِندِى أشدّ وآلمُ

وبى كلّما يبكى العيون أقلّه ... ومازلتُ منه دائما أتبسمُ

فالشاعر هنا ضاق بحياته من مصائب آلمته إيلاما شديدا، فكثر أنينه، بعد أن ضاق بالناس والزمان، وأذعن لأمر السماء فالله وحده عالم الغيب يعلم ما تخفى الصدور.

يقول مؤلف مسالك الأبصار: "هذا البيت الأخير حرت لمن أنسب أبوته، وإلى من بنوته، لقد كثر ما ظن منه فى مسمعى، وحل ما مزق سلوه مدعى، ولعله الواحد وقد ضمنه البقية، وضمن إليه

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٢/١٢.

ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى – مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة – ١٩٩٥م: ص٤٦٤.

(٢) المصدر نفسه: ٣/١٢، الديوان: ص٣٩٨.

متكلم فى قضية، إذ كان كأنه ملهج كل نطق، ومنهج معلل بالأمانى"[١].

وأسلوب الغزل عند تميم أسلوبان: أسلوب مباشر وفيه يتحدث عن العواطف والمواقف بأسلوبه هو، وأن يدع الحوار والإنطاق والقصص، وأسلوب غير مباشر ويشمل صورا متعددة فمنها على سبيل المثال الحكاية، وأخرى على سبيل الحوار، وثالثة صورة الإنطاق.

ويعرض لنا تميم فى هذه الأبيات صورة من أسلوبه الغربى غير المباشر فيتناول حكاية غزلية منصبة فى قالب موازنة يقول فيها[٢]:

وما أُمُّ خِشْفٍ ظَلَّ يوماً وليلةً ... بِبَلْقَعةٍ بَيْدَاءَ ظَمْآنَ صادِيا

تَهِيمُ فَلا تَدْرِى إلى أن تَنتهِى ... مولَّهةً حَيْرَى تَجُورُ الفَيافِيا

أضَرَّبها هَجرُ الهَجيرِ فلَمْ تَجِدْ ... لِغُلَّتها مِنْ بارِدِ الماءِ شَافِيا

فمَادنَتْ من خِشْفِها انعطفتْ له ... فألفَتْه ملهوفَ الجَوانِح طَاوِيا

بِأَوْجَعَ مِنِّى يومَ شدت حمولَهُم ... ونادَى منادِى البينِ أن لا تَلاقِيا

يقول مؤلف مسالك الأبصار: "وأورد له ابن سعيد فى المرقص قوله:

وأطلع الحسنُ من جبينِك شمساً ... فوقَ وردٍ من وجْنَتَيْك أطلا

وكأنَّ العذارَ خَافَ على الوردِ ... ذُبولا فمد بالشعرِ ظلا

وقوله:

كأنَّ بَقايَا الليلِ والفجرُ طالعٌ ... بقيةُ لطخ الكحلِ فى الأعينِ الزرقِ

قلت: ولم يذكر له ابن سعيد سوى هذا البيت والبيتين اللذين قبله، فأما البقية فما اخترته له"[٣].

والشاعر هنا يعتمد على بصره لا بصيرته حيث يعدد ألوانا ويقابل بينها لونا بلون، فسواد الليل كأنه بقايا الكحل، ورزقه سماء الصبح كأنها الأعين الزرق، هكذا ... ألوان مجردة مستقاه من الواقع الماثل أمام الحواس، أو الواقع المستكن فى الذهن.

والمديح عند تميم اقتصر على أبيه وأخيه، لأن مكانته الاجتماعية لا تسمح له بغير ذلك،

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٣/١٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣/١٢، الديوان :ص٤٦٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣/١٢.

وقد وردت الأبيات فى كتاب "المرقص والمطرب" لابن سعيد المغربى.

يقول جامع الديوان: "لم تذله ركة الطمع، فيستذل مديحه، ولم تخالجه مهانة السوقة فتغش خطابه الملوكى صريحه، بل كان هو مقصود الثناء، مصمود الفناء، ألسنة المدائح فى مكارمه مطلقة الأعنة"(١).

قال تميم يمدح الخليفة المعز لدين الله ويشكره على فرس أنفذه إليه(٢):

فتًى ليس بينَ المالِ يوماً وبينه ... ذِمَامٌ إذا ما زارَه الحمدُ والشكرُ
إذا زاره وفدٌ عدوا طريقه ... وتالده عندَ الذى لم يَزُرْ وفرُ
ألاهلْ لألفاظِى طريقٌ إلى العذرِ ... فدونَ التى أوليتنى رُتْبَةُ الشكرِ
وما الشعرُ فى قدرِ الأئمةِ زائدٌ ... ولكنَّ نظم الدرِ أشْهَى من النثرِ

وكان تميم يسمى أباه الإمام فى شعره، وهى كلمة ليست متأخرة، بل هى موجودة فى الشعر الشيعى فى العصر الأموى، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الشعر السنى فيما انتقل من مصطلحات الشيعة.

ونلاحظ هنا أن تميما قد استعار معنى البيتين الأول والثانى من قول المتنبى إذا امتدح قوم ممدوحه بالكرم، وبذل النفس لمن قصدهم، ومن لم يقصدهم، فهم ينفذون إليه صلاتهم، وينعمون عليه بأموالهم فكأن أموالهم وفد يقول المتنبى(٣):

وأنفسُهُم مبذولةٌ لوفودِهم ... وأموالهم فى دارِ مَنْ لم يفدْ وَفْدُ

ويفتخر تميم بعلمه وأدبه، وحسبه ونسبه، ويشيد بشعره وهو كثير الفخر به معجبا بنفسه فيقول(٤):

قِيسُوا بشعرِى شعره ... تعلموا تضايق النهر عن البحرِ
من أبطل الحق هجَا نفسهُ ... بجهلِهِ من حيثُ لا يدرِى

وقال يمدح أخاه الخليفة العزيز بالله، ويظهر فى مديحه الخضوع كله، والوفاء والحب كله، يضفى عليه من الصفات والأخلاق الموروثة كالشجاعة والكرم والعدل، ويشيد بانتصاراته، ويثنى على حكمته وعدله، وأن عصره عصر رخاء وازدهار، فيقول(٥):

---

(١) مقدمة الديوان: ص٥.

(٢) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٣/١٢، ٤، الديوان : ص١٠٤، ١٠٥، حيث ورد البيتان الأول والثانى فى: ص١٠٤، فجاء البيت الأول فى رواية الديوان (الشكر والحمد)، والبيت الثانى (...غدا من تليده وطارفه عند الذى لم يزررفد)، والبيتان الثالث والرابع: ص١٥٠.

(٣) ديوان أبى الطيب المتنبى – تحقيق د. عبد المجيد دياب – ط دار المعارف، ١٩٨٦م: ٣٨٥/٢.

(٤) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٤/١٢، ولم يرد البيتان فى الديوان.

(٥) المصدر نفسه: ٤/١٢، الديوان : ص٢٠١.

قد لاح نجمك بين العِزّ والظَّفَر ... وحاز وجهُك نورَ الشمسِ والقمرِ
أنتَ العزيزُ الذِى لولا خلافَتُهُ ... ما أصبحَ العدلُ منشوراً على البشرِ
كأن عَصْرَكَ فى إشراقِ بَهْجَتِهِ ... تفتُّحُ الوَرْدِ بين الروضِ والزهَرِ

فنحن حين نقرأ لتميم هذه الأبيات وبخاصة البيت الأخير منها، يحق لنا أن نرى فيها انعكاسا للبيئة، وإن كان أكثر تلك الصور منتزعا من الرياض والبساتين، حيث وردت صور بلاغية كثيرة لتميم تتعلق بالنبات والنيل وغيرهما من مظاهر البيئة الطبيعية وغير الطبيعية.

وكثيرا ما مدح تميم أخاه العزيز بالله مدحا خالصا، يضفى عليه الصفات الشيعية ويمدحه بصفات الحكم الحديث من فصاحة فى الخطبة، وحزم وشجاعة فيقول[1]:

كأنّ الدُّروعَ السابِغَاتِ عليهمُ ... لِما أَلِفُوها سُنْدُسٌ وحريرُ
وأسمعتَ فى حمد الإلهِ بخطبة ... تَفَجَّرُ منها للصوابِ بحورُ

هذه الأبيات من قصيدة رائية لتميم يعارض بها رائية أبى نواس التى أنشدها بين يدى أمير مصر من قبل هارون الرشيد (الخصيب) وهى تتفق معها فى الوزن والقافية وحرف الروى وحركته والتى يقول فى مطلعها[2]: (من الطويل)

أجارة بيتينا أبوكَ غيورُ ... وميسورُ ما يرجى لديكَ عسيرُ

حيث يحتفظ تميم باستقلال شخصيته فى افتتاحياته وانتقالاته من غرض إلى آخر، بل يفوق أبا نواس فى صياغته وتعبيراته وصدق تجربته وإبداع صوره.

ويلجأ الشاعر إلى الكأس ليزيل هموم صدره، ويصرف عن نفسه التفكير فى الواقع مما فيه من هموم، فهو مؤمن بما تصنع الخمر بالشاربين، وما يصنعه هو فى سكره، يقول[3]:

بالورود فى وَجْنَتَيْك من وسمك ... ومن سقَاك المدام قد ظلمك
يا ويح ساقيك إذْ سقاك كذا ... لو كانَ أَحْنَى عليكَ إذْ رحمك
مبلبل الصدغِ قد ثملت فلم ... يمنعْ لتقبيلِ عاشقيك فمك

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٤/١٢، الديوان: ص١٤٣. وفى رواية الديوان البيت الثانى (وأسهبت فى حمد الإله)

(٢) ديوان أبى نواس – تحقيق: بدر الدين حاضرى، ومحمد حمامى – ط، دار الشرق العربى – بيروت، ١٩٩٢: ص٢٩٦.

(٣) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٤/١٢، ولم ترد الأبيات فى الديوان.

ونصيب المديح مما خاطب به شاعرنا أخاه كبير، فنراه يكثر الحديث عن بهائه حين يشبهه بالشمس والقمر، وبأنه جميل الهيئة والمنظر، ويبدو أن العزيز كان يعجب من سماع ذلك، فيقول له مادحاً[١]:

يا صارِمَـــى لحظـــهِ يدينكمَـــا ... لا تُسلمَانِـــى إلـــى العِذاريـــنِ
ويا عذارَيـــه مـــا أُحَيْســـنَ مـــا ... برزتمَـا فيـــهِ لِـــى بعُذْرَيـــنِ
كـــأنّ صُدْغَيْـــهِ فِـــى سوادِهِمـــا ... لَيْلان قـــد طُـــرِّزَا بصُبْحَيْـــنِ
أعـــادَ شمـــسَ النهـــارِ شَمْسيـــن ... بـــه وبـــدرَ الظـــلامِ بدريـــنِ
لِـــى فيـــه عيـــنٌ يَلَـــذّ مؤلِمُهـــا ... رأيـــاً وقلـــبٌ يحِـــنّ للحَيْـــنِ
والحـــبّ عـــذبٌ مـــا قـــلّ فـــإن ... زاد دعـــا للشَّقَـــاءِ والحَيْـــنِ

يقول مؤلف مسالك الأبصار وتعليقا على هذه الأبيات: "وقد ذكرته وإن كان مهلهل النسج نازل الطبقة"[٢].

هذه الأبيات من قصيدة نونية وردت بالكامل فى الديوان يقول تميم فى مطلعها[٣]:

الآنَ قَـــدَّ الفـــؤاد نِصفَيـــنِ ... فيه، وأَجـــرَى الدمـــوعَ نوعَيـــنِ

وقد عارضها تميم بقصيدة الوأواء الدمشقى فى قصيدته التى مدح بها سيف الدولة التى مطلعها[٤]:

صَوْلَـج لامَيْـن فـــى عِذَارَيْـــنِ ... فـــى ذَهبيـــن جوهريّيـــن

وأعلن معارضته لها مفتخرا بقوله:

تُـزْرِى بألفاظِهـا العِـــذابِ علـــى ... (صَوْلَـج لامَيْـن فـــى عِذَارَيْـــنِ)
وتختفِـــى قِلّـــةً إذا ذُكـــرتْ ... (فـــى ذَهبيـــن جوهريّيـــن)

وللشاعر لهجات متعددة فى غزله تتراوح بين السمو والانحطاط، ففى أبياته هذه لهجة خليعة يصف لنا فيها ما وقع له مع النساء فى أسلوب مادى فاجر كما فعل بشار، وأبو نواس،

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٤/١٢، الديوان: ص٤٠٨، ٤٠٩، وفى رواية الديوان البيت الأول (فديتكما)، والبيت الثالث (كأن خديه فى سوادكما صبحان قد طرزا بليلين)، وفى البيت الخامس (حسبك عين دأبا)، والبيت السادس (ما قل منه).

(٢) المصدر نفسه: ٤/١٢.

(٣) ديوان تميم: ص٤٠٨-٤١٢.

(٤) ديوان الوأواء الدمشقى – ليدن ١٩١٣م: ص١٧.

فشاعرنا لم يكن يحب شخصا معينا أو امرأة لذاتها، وإنما يحب كل النساء، وفى هذا الشعر إباحية وتصوير حسى مادى تجرأ فيه الشاعر وصرح به فقال[1]:

إذا خلوتَ بمحبوب تُجَمِّشُهُ ... فاملأْ محاسِنَ خَدَّيه من القُبَلِ

لا شئَ أحسن من كفٍّ تُغَمِّزها ... كَفٌّ ومن مُقلٍ ترنو إلى مُقَلِ

وقل لمن لامَ فى لهوٍ تُسِرّ به ... إليك عنّى فإنّى عنكَ فى شُغُلِ

إن الثقيل هو المحرومُ لَذّتَه ... لا بارَكَ اللهُ فيمن راحَ ذا ثِقَلِ

ومن قصيدة طويلة يمتدح فيها الشاعر الخليفة العزيز بالله فيقول[2]:

سقَتْنا المدامَ وألحاظُها ... من السكرِ تفعلُ أفعالَها

إلى اللهِ أشكُو مريضَ الجفُونِ ... مليحَ الشمائِلِ مُختالَها

فنُعْمٌ ولم أرَ إنعامَها ... وجُمْلٌ ولم أرَ جمالَها

فالشاعر هنا بدأ قصيدته بوصف الخمر قبل أن ينتقل إلى غرضه الرئيسى وهو مدح العزيز بالله، ومثل هذا المطلع - وإن كان جيدا من حيث الصياغة - إلا أنه ينقصه مراعاة المقام من باب التأدب مع مخاطبة الأئمة، والشاعر الفطن هو الذى يتخير مطالعه ويراعى أحوال المخاطبين.

وفى هذه الأبيات يستهل الشاعر حديثه عن الخمر، وما يحدثه فى شاربه من لذة وراحة، فعندما يعل المرء الخمر فإنه تعروه نشوة من الذهول والترنح، فيشعر أنه أكثر انسجاما وتآلفا مع نفسه، وأكثر رضا عنها وعن الحياة. ولعل قوله "من السكر تفعل أفعالها" توضح ذلك، وما يصاحب ذلك من ألحان وأنغام ومراء، ويضم إليها المتعة الجنسية، كما يحدثنا أنه قد يهوى إنسانا فلا يقدر عليه، فيحتال عليه بالخمر حتى يسكر.

وقد جاء فى تقديم الجار والمجرور فى أسلوب القصر "إلى الله" يفيد قصر بث الشكوى على الله، واختصاصه وحده بالشكوى دون أحد سواه.

وكان الشاعر كثير الإخوان، وكان لفيف من أصحابه شعراء يراسلونه بالشعر، فكثر فى ديوانه هذا الفن الشعرى الذى يصح أن نسميه "شعر الإخوانيات" وهو يدور حول السؤال عمن يتصل بهم الشاعر، أو الرد على سؤالهم، أو التهنئة أو التعزية، أو المواساة، أو الإهداء، أو الاستهداء، أو الاعتذار والإعذار أو الدعابة أو الإلغاز. وهذه موضوعات خفيفة فى كثير من الأحيان. ويلحظ عليها

---

(١) مسالك الأبصار - أحمد زكى باشا: ٥/١٢، الديوان : ص٣٢١.

(٢) المصدر نفسه: ٥/١٢، الديوان: ص٣١٦، وفى رواية الديوان البيت الأول (من السحر).

أنها قد يندرج بعضها فى ثنايا الفنون الأخرى، وقد يندرج فيها غيرها كالوصف والفخر مثلا.

وقد أحسن تميم بأن الزمان يتعقبه، والصحاب يتخلون عنه، والظلم يصطلح عليه، فرضى بسابقة القضاء، وأذعن لأمر السماء، فما جرى منها بعقد لا يحله أبناء آدم على الأرض فيقول مخاطبا الخليفة العزيز بالله[1]:

رَضِيتُ بحكم سابقَةِ القَضاءِ ... على وإن تُكَدِّرُ صَفْوَ مَائِى

وهلْ يستطيعُ أهلُ الأرضِ حَلاًّ ... لِعَقْدٍ شُدَّ من فوقِ السماءِ

والاستفهام فى البيت الثانى يعبر عن التسليم والرضا بالقضاء، حيث صدر جملته الفعلية بحرف الاستفهام "هل" بغرض التصديق الإيجابى أو التقرير.

والرثاء من الموضوعات البارزة فى شعرنا، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة، وهو بكاء يتعمق فى القدم منذ وجد الإنسان، ووجد أمامه هذا المصير المحزن: مصير الموت والفناء الذى لابد أن يصير إليه، فيصبح أثرا بعد عين، وبذلك استطاع الإنسان أن يكتشف حتمية الموت حينما تجاوز العقلية البدائية، وبدأ يفكر بطريقة منطقية حتى وصل إلى قانون قوامه أن "البشر جميعا فانون"، فيقول الشاعر يرثى أخاه الأمير عبد الله ثانى أبناء المعز لدين الله الفاطمى[2]:

كلُّ حَيٍّ إلى الفَنَاءِ يصيرُ ... والليالِى تَعِلَّةٌ وسُرورُ

وإذا لَمْ يكُنْ منَ الموتِ بُدٌّ ... إن طولَ الحياةِ نَزْرٌ حقيرُ

كيف لم تسقط السماءُ على الأر ... ضِ ولم تَهوِ شمساً والبدورُ

يوم ماتَ الأميرُ بل يوم ماتَ الصبـ ... ـرُ بل يوم ماتَ السرورُ

يوم أبكِى العيون حتى بكاهُ الـ ... ـأسَدُ الوَرْد والغزالُ الغَرِيرُ

وسمعتُ الزفيرَ وهو صُرَاخ ... ورأيتُ الدموعَ وهى هجيرُ

قبروا شخصه وواروا سناه ... وتولوا والمقابر القبور

كم نصيرٍ لهُ هناكَ ولكن ... ليسَ من سَوْرةِ الحِمامِ نصيرُ

لو تركنا إلى الفداء فداه ... من يد الموت عالمون كثير

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٥/١٢، الديوان: ص٢٨. وفى رواية الديوان البيت الأول (وإن أضحت تكدر صفو مائى).

(٢) المصدر نفسه: ٥/١٢، ٦، الديوان: ص١٤٧-١٤٩ وفى رواية الديوان البيت الأول (وهى بحور)، والبيت الثانى (فطويل الحياة)، والبيت الثالث (شمسها)، البيت السادس (وهى بحور)، والبيت السابع (والفائز المقبور).

وسيـــوفٌ ومثلُهـــنّ عبيـــدُ ورمـــاحٌ ومثلهـــنّ عشيـــرُ
فالصباحُ الأغـرُّ ليـــلٌ بهيـــمٌ عنـــد فَقْدِيـــك والديـــارُ قبـــورُ

ولعل من أهم خصائص أسلوبه المميز ظاهرة التكرار وهـى ظـاهرة معروفـة فـى العربيـة منـذ القدم، ووردت فى كلام العرب (شعره ونثره)، واستعملها القـرآن الكريـم كثـيرا، لأنـه نـزل بلسان العرب وعلى مذهبهم وسننهم وطرائقهم فى الكلام، وقد أتى به تميم ليؤكد على المعنى الذى يسـوقه، والإلحاح عليه، ويقوم التكرار بوظيفة إيحائية بارزة، وتتعدد أشـكاله وصـوره مـا بـين تكـرار لفظـة بعينها، أو أداة معينة دون تغيير، وأشكال أخرى أكثر تركيبا.

وتميم هنا فى هذه الأبيات يتناول اللفظة أو المفردة الشعرية المكررة، ويظهر ذلك فى التكرار الأفقى لكلمة يوم فى البيت الرابع، وفى هذا اللون من التكرار الأفقـى لكلمـة (يـوم) نـوع مـن تداعـى الدلالة وتكثيفها عن طريق المجاورة، حيث تنتقل الدلالة من الكلمة الثانية إلى الكلمة الأولى.. وهكذا يوظف الشاعر التكرار جزءا من التجربة، أو جزءا من حركة الفكر، ويتخذ من الكلمة المكـررة نقطـة البداية التى يستحضر بها صورة الرحيل، وقد تـأخذ الدلالـة بعـدا رأسيا فـى الموضـع نفسـه، حيـث تتكرر لفظة "يوم" فى البيت الذى يليه بشكل تتابعى رأسـى. ولتميـم مـراث قليلـة، هـذه إحداهـا لم يظهر فيها الشاعر عاطفة الحزن على فقد أخيه الصغـير عبـد الله ولى العـهد، ولكنـه ألم فيـها ببعـض العبارات الحزينة التى لا تنبعث منها عاطفته هو.

وقد عرفنا أن تميما يبدأ الرثاء بالحكمـة المتعلقـة بـالموقف، وهـذه سـنة المتنبـى سـار عليـها شاعرنا، وأول ما يلحظ على مرثية عبد الله ولى العهد أن هذا البيت منها:

وإذَا لم يكـنْ مـنَ المـوتِ بـُـدٌّ إن طـولَ الحيـاةِ نَـزْرٌ حَقيـرُ

فيه شطر من بيت المتنبى[1]:

وإذا لـم يكـنْ مـن المـوتِ بُـدٌّ فمِـنَ العَجْـزِ أن تكـونَ جَبَانَـا

كما أنه متأثر بقصيدة قالها المتنبى يرثى بها محمد بن اسحق التنوخى أولها[2]:

إنـى لأعلـمُ واللبيـبُ خبيـرُ أن الحيـاةَ وإن حرصـت غـرورُ
ورأيـتُ كـلا مـا يعلـل نفسـه بتعلـةٍ وإلـى الفَنـاءِ يصيـرُ

فالعلاقة واضحة بين النصين لفظا ومعنى، وكأنما البيت السابق تلخيص لسابقيـه، ثـم إن

(١) ديوان المتنبى: ٤٧٣/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٣٧/١.

مرثية تميم تدور حكمتها فى مطلع حول ما قال أبو الطيب: غرور الحياة ومصيرها. وهكذا تأثر تميم بالمتنبى فى مراثية، كما تأثر به فى المدح والفخر، فمال إلى الحكمة.

ويفتتح الشاعر مدائح أخيه بالغزل على عادة الشعراء، لما فى الغزل من ترفيه عن المبدع والمتلقى ثم انفراد الممدوح بعد ذلك لما بقى من القصيدة، وهو فى معظمها، بحيث يكون المحور الرئيسى لما يدور فيها من أفكار، وهو يرى أن الخمر وضرب الأوتار على العود فى زحمة همومه بعد أن تسرب الأمل لديه، وأصبح يعيش على هامش الحياة بحرمانه من الولاية والخلافة والنفوذ والسلطان لا تقوى على مغالبتها، والشاعر هنا فى هذه الأبيات يمدح الخليفة العزيز بالله بالأخلاق الموروثة من المجد والعلا، والجود والعطاء، والشجاعة ويتفاخر بمكانته، ويثنى على حكمته وعدله وحسبه ونسبه فيقول[1]:

شَرى البرقُ فارتاحَ الفؤادُ المُعَذَّبُ ... وحارَ الكَرَى فى العين فَهْو مُذَبْذَبُ

أرِقتُ لها البرق حتى كأنّما ... بَدا فبَدَتْ منه لعيْنَىَ زينبُ

وأنّى اهْتدى طيفُ الحبيبِ ودُونَه ... من البِيدِ مجهولٌ ومهمهٌ وسبسبُ

فَواصَلَنى تحت الكَرَى وهو عاتِبٌ ... ولولا الكَرَى مَازارَنى وهو يَعْتِبُ

وبات ضجيعى منه أَهْيَفُ ناعِمٌ ... وأدْعَجُ نَشْوانٌ وأَلْعَسُ أشْنَبُ

كأنّ الدجَى من لون صُدْغَيه طالِعٌ ... وشمسُ الضُّحَى من لونِ خَدَّيْه تَغْرُبُ

إلى اللهِ أشكُو سِرَّ شَوْقٍ كتمتُهُ ... فنَمَّ بِهِ واشٍ من الدمعِ مُعْرِبُ

خَلِيلَىَّ ما فى كُؤوسِ الرَّاحِ رَاحتى ... ولا فى المَثانِى لَذّتى حين تضربُ

ولكِنَّنى للمجدِ أرتاحُ والعُلَا ... والجُود والإعطاء وأصْبُو وأطْرَبُ

وَمَنْ بينَ جَنْبَيْهِ كنفسى وهمَّتى ... يَروحُ له بينَ الكواكبِ موكبُ

ومنها:

رفيعُ المعالِى فى العيُونِ مُعَظَّمٌ ... كريمُ السجَايَا للنفوسِ مُحَبَّبُ

كأنَّ العطَايَا والمَنَايَا نوافِلٌ ... يجودُ بهَا فى حين يَرْضَى وَيغْضَبُ

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٦/١٢، الديوان: ص٤٠-٤٣.

وفى رواية الديوان البيت الأول (فالتاع الفؤاد)، والبيت الثانى (لهذا البرق ... شرى) والبيت الثالث (طيف الخيال.... ودو وسبسب)، والبيت السادس (فى صحن خديه)، والبيت الثامن (أكؤس الراح.... حين تطرب)، والبيت التاسع (وللجود)، والبيت العاشر (فوق الكواكب)، والبيت الحادى عشر (فى النفوس)، والبيت الثالث عشر (مذاقه)، والبيت الرابع عشر (فى حلبة الفضل).

ألذّ من الشهدِ المُصفّى لذائقٍ وأطيبُ من نيلِ الأمانى وأعذبُ
مآثرُه فى حَلْبةِ الفضلِ سَبّقٌ وتدبيرُهُ فى ظُلْمةِ الليلِ كوكبُ

ويكمن سر الإيقاع فى الأبيات هنا حول ما يحدث فى بنية الكلمة نفسها حين تلتقى بعض الأحرف المؤتلفة والمتماثلة فى بنية الكلمة كما جاء فى كلمة "مذبذب" فى البيت الأول فأحدثت جرسا خاصا ومميزا.

كما أن قوله "وهو مذبذب" بعد قوله "حار الكرى" يبدو حشوا لاسوغ له إلا استتمام البيت مصرعا. وفى هذا البيت كثر استعمال تميم للجملة الحالية المصدرة بضمير منفصل.

كما أن تقديم الكلم وتأخيره عن مواضعه أبعاد ترتبط بالأداء الوظيفى للجملة، ويمثل بعدا إدراكيا لوعى المبدع بالمكونات المتشابكة لجزئيات صياغته، ومن هنا جاء تقديم الجار والمجرور فى أسلوب القصر "إلى الله" فى البيت السابع يفيد قصر بث الشكوى على الله، واختصاصه وحده بالشكوى دون سواه وتميم ينظر إلى الشعر العربى كغيره من الشعراء يحذو حذوهم، فرأيناه يعارض قصائد مختلفة، وخاصة حينما يجمع بين الكرم والشجاعة فى البيت الواحد كما جاء فى قوله:

كأن العطايا والمنايا نوافل يجود بها فى حين يرضى ويغضب

ومثل هذا الجمع متكرر ومعروف فى الشعر العربى كما فى قول طرفه[1]:

يداك: يدخيرها يرتجى وأخرى لأعدائها غائظه

وقول حسان بن ثابت[2]:

له كف تفيض دما، وكف يبارى جودها سح الشمال

وقول الأخطل[3]:

له يومان: يوم قراع كبش ويوم يستظل به مطير

وقول جرير[4]:

مأوى الجياع إذا السنون تتابعت وفتى الطعان عشية العصواد

وقول ابن الرومى[5]:

---

(١) ديوان طرفة بن العبد – شالون ١٩٠٠م: ص١٥٥.

(٢) ديوان حسان بن ثابت – تحقيق د. سيد حنفى حسنين – ط دار المعارف، ١٩٨٣م، ص٢٧٦.

(٣) ديوان الأخطل – تحقيق د. فخر الدين قباوة – دار الآفاق الجديدة – بيروت، ١٩٧٩م: ص٢٠٤.

(٤) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب – تحقيق د. نعمان محمد أمين طه – ط٣، دار المعارف، ١٩٨٦: ٤٤٤/١.

(٥) ديوان ابن الرومى – تحقيق د. حسين نصار – ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣م: ١٤٣/١.

ماجدُ، حـاربَ الحـوادثَ دُونـي بنـدَى حاتـم، وبـأس شبيـب

وقول ابن هانىء[١]:

فارغـب أو ارهـب إن أيمَانهـم مبسوطـةٌ تسعـدُ أو تشقَـى

وقول الوأواء[٢]:

الـذى لا تـراهُ مُـذْ كـانَ إلا واقفـاً بيـن نائـلٍ وعقـابِ

وقد طافت بذاكرته رؤى الوطن، وأطياف الأحبة والأهل فيخفى فى نفسه ما لم يستطع كتمانه من حزن ولوعة واشتياق من ألم الفراق، فيقول الشاعر ممتدحا الخليفة العزيز بالله وقت نزوله مناخ الفتوح بالطواحين قبل الظفر بالأتراك[٣]:

إذا حانَ من شمسِ النهـارِ غـروبُ تذكـر مشتـاق وحَـنَّ غريـبُ

وما بلد الإنسـانِ إلا الـذى بـه لـه سكـنٌ يشتاقُـه وحبيـبُ

فآيـةُ حزنـى لوعـةٌ وصَبابَـةٌ وعنـوانُ شوقـى زفـرةٌ ونحيبُ

ومـا فَارقُونَـا برتَضُـونَ فراقَنـا ولكـن ملمـاتِ الزمـانِ ضـروبُ

يقول مؤلف مسالك الأبصار "وهذا البيت الأول هو لابن المعز هذا وساقه الوزير المعرى فى ترسله ضاما نطاقه إلى سلسلة وقد ادعاه ابن الظهير الإربيلى على سعة علمه بالأدب وغزارة مدده منه، وسموم عن غرض الإدعاء بدأ به قصيدة نظمها مر فى ترجمته أبيات منها، ولعله كان قد سد عن خاطره وطنه، أو سنح له وقت نظمه أنه ناسخ ردنه، ومقتضب غصنه"[٤].

وفى صورة أخرى يجمع الشاعر - من طريق التضاد - على ساقية حسناء صفات الحسن بما تملك من جمال وفتنة يتمثل فى قوام بديع مديد يتثنى كالغصن، وخد مورد قد امتزجا بالنار والماء معا فيقول[٥]:

تَميسُ بقَدٍّ كالغصـنِ الريـاضِ وتضحـكُ عـن مثـلِ أزهَارِهَـا

تَـرى النـارَ والمـاءَ فى خدِّهـا قـد امتزجَـا فـوقَ أبشارِهَـا

---

(١) تبيين المعانى فى ديوان ابن هانئ - مصر ١٣٥٩هـ : ص٤٩٤.

(٢) ديوان الوأواء: ص٩.

(٣) مسالك الأبصار - أحمد زكى باشا: ٧/١٢.

(٤) المصدر نفسه: ٧/١٢.

(٥) المصدر نفسه: ٧/١٢، الديوان: ص ٢٣٩. وفى رواية الديوان البيت الأول: (تميس كمثل غصون الرياض.... نوارها)، والبيت الثانى (الماء والنار).

فـلا النـارُ تعـدُو علـى مَائِهـا ولا المـاءُ يعـدُو علَـى نارِهَـا

فالطباق بين "النار والماء" يشكل عنصرا أساسيا فى تشكيل الصورة البديعية عند تميم، وتجلية غموضها، وإضفاء الجمال عليها.

وهو كغيره من شعراء الغزل يحب الجبين الواضح، وهذا الشعر الذى يزين ظهرها بسواده الفاحم كالظلام الحالك، فيطلب منها الشاعر ألا تحجبه عن أعين الناظرين فتجيبه بأنها تخفى هذا الحسن والجمال عن أعين الرقباء والحساد فيجيبها الشاعر بتجربته الطويلة، وخبرته بالحياة أن إطالة النظر إليها لن ينقص من حسنها شيئا بل كلما زدنا نظرا إليها زادها ذلك حسنا، فيقول[1]:

لا تحجبى عن عيونِ الناظرين سَنَا هَذا الجبينِ ولا ظلمـاء ذا الشعـرِ

قالت أصونُ بديعَ الحسنِ قلتُ لهـا لا ينقصُ الحسنَ يوماً كثـرةُ النظـرِ

ويعرض لنا الشاعر من شعره فى صورة أخرى بأنه لا يطمع فى وصالها، ولكنها حين تضن بذلك فهو سيان عنده قربها من بعدها، وأن أقبح ما يكون البخل عند الماجد الحر الكريم، وأقبح ما يكون الجود عند كل مليحة، يقول الشاعر[2]:

تَضنُّ ببذلِ الوصلِ فى القربِ والنوَى فسيَّانِ عنـدِى قربُهـا وصدودُهـا

وأقبحُ ما فِى الماجـدِ الحُـرِّ بخلُـهُ وأقبحُ مـا عنـدَ المليحـةِ جُودُهـا

لقد كان تميم شاعرا ماجنا، منكود الطالع، وكان أصحابه من المعربدين، وكانت مصرفى أيامه زاخرة بالحانات، وحديث الشابشتى عن أديرة مصر يدل على أن تميما قد عاش فى بيئة كتلك التى عاش فيها أبو نواس، وقد دفعه ذلك إلى شرب الخمر، فكان يشرب فى الحانات الكثيرة المحيطة به، أو يشرب فى الأديرة المنتشرة فى البيئة المصرية، وخصوصا دير القصير. وهكذا صارت الحياة عند تميم قينة وخمرا وساقية مليحة يتسلى بها فيصفها بقوله[3]:

ومظهـرةٍ عَقْـدَ هِمْيانِهَـا تَدِيـنُ بطاعـةِ رُهْبَانِهـا

تراءَتْ لَنَـا يـومَ دَيْـرِ القُصَيْـرِ وقـدْ فوقَـتْ سهـمَ أجفانِهـا

فلَمَّـا قضـت حَـقَّ قُرْبانِهـا وأدَّت فريضـةَ صُلْبانِهَـا

رمَتْنـا بلحـظٍ يقُـدُّ القُلـوبَ ويجرَحُهـا دونَ أبدانِهَـا

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٧/١٢، الديوان : ص ٢٤٠، ٢٤١.

(٢) المصدر نفسه: ٧/١٢، الديوان : ص١٢٦. وفى رواية الديوان البيت الثانى (ما عند الخريدة).

(٣) المصدر نفسه: ٧/١٢، الديوان : ص٤٣٧، ٤٣٨.

وفى رواية الديوان البيت الأخير (قبل أبدانها).

والقافية فى الأبيات السابقة من (المتقارب) من نوع ثلاثية المقاطع على وزن (لـن - ف - عـو) فى (باطنها - فانها - بانها - دانها) وهى عبارة عن (مقطع طويل + مقطع قصير+ مقطع طويل)، ومعلوم أن كثرة الصوائت وقلتها تساعد على علو الجرس وخفوته، وهو ما أكده بعض علماء الأصوات، حيث تعمل بعض العناصر من خلال استخدامات الشاعر فى اتجاه الجهارة تارة، وبعضها فـى اتجـاه الخفوت تارة، فيتعادل هذا مع ذاك، أو يتغلـب أحدهمـا علـى الآخـر، لكـن الأثـر الإيقـاعى لايكـون واضحا إلا إذا أخذت هذه العناصر فى التنوع داخل البيت أو عملت فى اتجاه واحد فى منطقة القافيـة. ومن الصفات التى خلعها تميم على أخيه العزيز بأنه ثاقب الرأى لما يملك من رجاحة عقـل فـلا تغـره الدنيا بلهو أو نعيم ليل نهار كما كان يفعل تميم، وانشغاله بالمتع التى هيأهـا لـه العزيـز لشـغله عـن الاشتراك فى الحياة العامة فيقول[1]:

وَمَنْ كَمُلَتْ فيـهِ النُّهَـى لا يَسَـرّه ... نَعِيـمٌ ولا يرتـــاعُ للحَدَثَـــانِ

وقد وصف تميم المحبوب بصفات كثيرة، وهـى صفـات تقليديـة جـرى عليـها الشـعراء مثـل قوله[2]:

أبَـــاحَ لمقلتِـــى السَّهَـــرا ... وجَـــارَ علـــىّ واقتَـــدَرَا

غـــزالٌ لو جـــرى نَفسِـــى ... عليـــه لـــذابَ وانفطَـــرا

ولكـــن عينُـــهُ حبـــذت ... علـــىّ الغُنْـــجَ والحَـــوَرا

وقوله[3]:

أُحِبُّ عذولِى فيك والكَاشِحَ الـذِى ... يَنُمّ علينَا والرقيبَ الـذى يَسْعَـى

لأنهمُ من أجـلِ حُبّـك أصبحَـوا ... معَـارِفَ لى لا أستطيع لهـم دَفْعَـا

وهو فى هذا الشعر، كما فى غيره يرسم الشاعر ولعه بها وأنه إذا ما حاولوا أن يباعدوا بينـه وبينها فلن يستطيعوا لأن ذكراها وخيالها تأبيان إلا أن تهيم بها وتشتاقها فيقول مـن نسيب يتصدر مدح العزيز[4]:

---

(١) مسالك الأبصار - أحمد زكى باشا: ٧/١٢. الديوان: ص٤٤٩ وفى رواية الديوان (وقد كملت).

(٢) المصدر نفسه: ٨/١٢. الديوان : ص٢١٦. وفى رواية الديوان البيت الأول (أتاح)، والبيت الثالث (عينه حشدت).

(٣) المصدر نفسه: ٨/١٢، الديوان : ص٢٦٠ وفى رواية الديوان البيت الأول (أحب عدوى).

(٤) المصدر نفسه: ٨/١٢، الديوان: ص٣٤، وفى رواية الديوان (عنى سرى).

إن يَحْجُبوا وصلَهـا فمـا حجبـوا ... عَنِّـى سِوَى طيفهـا وذكرَاهَـا

هو من قول الأول:

فإن تمنعوا ليلى وحسـن حديثهـا ... فلـن تمنعوا منى البكـار القوافيـا

ويروى لقيس[1].

وظل تميم عاكفا على الشراب واللهو، محبا للسماع، مشاركا أصحاب اللذة والمجون، وهو ينشدها دائما، فنرى الكأس تعلوها فقاقيع تشبه الحب أو اللؤلؤ، والخمر مضيئة دائما فى شعر تميم أشبه بالشمس فى وضاءتها فيشربها الثمالة ليتسلى بها حيث تصدح الموسيقى، ويعلو الغناء، ثم لايلبث أن يمضى الشاعر فى تعداد مآثر أخيه فيمدحه بكرم العنصر ومنعة الجانب والشجاعة والكرم والوفاء، ويرسم لنا صورة صادقة لنفسه الشريفة التى تأبى القيود، وتسمو إلى العلاء، وتاريخ مجد لا يعد له مجد، وما إلى ذلك مما كان شأنه عندهم عظيما، يقول[2]:

أعـارتِ الـراحَ لـونَ وجنتِهَـا ... وطَبْـعَ ألْحَاظِهَـا ومعنَاهَـا

وليلـةٍ بتُّهـا علَـى طَـرَبٍ ... آخِرُهَـا مُشْبِـهٌ لأُوْلاَهـا

أُقبِّـلُ البـرقَ مـن تَرائبِهـا ... وأَلْثَـمُ الشمـسَ مـن مُحَيَّاهـا

فيالَهـا قهـوةً معتّقـةً ... وليـس إلّا الخـدودَ مأواهَـا

أخالُهَا الشمـسَ فـى تَلألُؤِهَـا ... بـل أخـالُ الشمـوس إياهَـا

سَلِى الصِّبا والمدامَ عـن شِيَمِـى ... والمجدَ عـن راحتِـى وجَدْواهـا

ألستُ أُعطِـى العُـلاَ حقائِقَهـا ... منى وأُجرى اللّـذاتِ مُجْـراهَا

وإنْ بَدتْ لى الخطـوبُ تسحرنـى ... أضعفُهَـا عظـةً وأضناهَـا

واسمَعْ فعنـدِى مـن كـلِّ صالحةٍ ... ألطَـفُ أسْرارِهـا وأخفَاهَـا

لا أدّعى الفضلَ فيك يشهـدُ لِـى ... بـه أدانِـى الدُّنَـى وأقْصَاهَـا

وينقل لنا تميم فى غزله ما يقع عليه نظره من المرأة فأعذب شئ عنده قبلة يضعها على خد فتاة حسناء طيبة الأسنان، رائحتها عطرة، ريقها عذب وكأنه خلق من ماء شهد فهو يتمنى هذا

---

(١) ديوان مجنون ليلى – تحقيق عبد الستار أحمد فراج – دار مصر للطباعة ١٩٧٩م: ص٢٢٧.
وفى رواية الديوان (فإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادها ... على فلن تحموا على القوافيا)

(٢) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٨/١٢، الديوان: ص٣٥، ٣٦. وفى رواية الديوان البيت الخامس (تخالها .... لا بل تخال)، والبيت السادس (سل الصبا والأنام)، والبيت الثامن (وإن تدب الخطوب جامحة لقيتها لا أخاف عقابها)، والبيت العاشر (قبل يشهد لى).

الريق ويلبث على عطشه حتى ترويه بقبلة فيقول[١]:

أعـذبُ الأشيـــاءِ عنـــدى قُبْلَـــةٌ فـــى صَحْـــن خـــدٍّ
وثَنايـــا عَطِـــــراتٌ خُلِقَـــتْ مـــن مـــاءِ شهـــدِ

ويرسم لنا الشاعر فى صورة شعرية أخرى ما يقع بين مودِّع ومودَّع وقد تعانقا مودعين فما ينفك أن يبكى كل منهما الآخر لهذا الوداع، ويرسل الدمع والزفير فى إثرها حنانا وشوقا وكأنها الياقوت المرصع فتشرح دموعه حكاية حاله فيقول[٢]:

وَقَفـا علـى جمـرِ الأسَى وضرامه مُتَعَانِقَيْـنِ كأنَّمـا خُلِقَـا معَـا
ضما حبلا دمعـا يجـولُ وأنفسـاً مقبوضـــةً وتنفُّســـا متقطّعـا
وَبَلَلْن كافورَ الخـدودِ مـن البكـا فَبَـدا بياقـوتِ الدمـوعِ مرصَّعـا

والشاعر حين يرسم المعشوقة أو الخليلة يصفها فى صورة مادية محسوسة فى إشراق وجهها، وأن خدودها أشبه بالنبات قد صار طريا ناضجا يخف لها الفؤاد ويرتاح، فهواها قاتله، لأنها تصب حبها فى قلوب الناس يقول[٣]:

له نبتَ علـى الخدَّيـنِ غـضُّ تضيفـه ليتلـفَ كـلَّ لـبِّ
تبـارك مَـنْ يـَراهُ بـلا شَبَهٍ وسلَّطـه علـى قتـلِ المحـبِّ

وصور الغزل عند تميم كثيرة أشهر من أن نقف عندها كلها، حيث يصف لنا كيف تثير المرأة فى نفسه أحاسيس الجمال، وفى جسده ألوان المادة، فلو صنع للجمال تمثال لكان هذا الحبيب، والشاعر فى معانيه لا يخرج عن معانى القدماء فيصورها بالظبى فى حسن جيدها، رشيقة لطيفة تعلق بها قلبه، فهى قوية التأثير عظيمة الفتنة فيقول فى جمالها[٤]:

وَيْلـى علـى مَـن كـلُّ عيـ ـن أبصرتـه تُظلِمُـهْ
لَـوْلَا مَـسَ الوَهْـمُ الخفـ ـيُّ أديمَـه لجـرى دَمُـهْ
لَو زارَنـي لـم أستطـعْ خوفـاً عليـه ألثمُـهْ
ظبـي يعـذِّب مهجَتـي ظلمـاً وقَلْبـي يرحمُـهْ

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٩/١٢، الديوان : ص١٠٧.

(٢) المصدر نفسه: ٩/١٢، الديوان: ص٢٦٩، وفى رواية الديوان البيت الأول (يصفانه)، والبيت الثانى (خرسا خلا دمعا).

(٣) المصدر نفسه: ٩/١٢، والأبيات غير موجود فى الديوان.

(٤) المصدر نفسه: ٩/١٢، الديوان: ص٣٩٨، وفى رواية الديوان البيت الأول (تعظمه)، والبيت الثالث (أو زارنى).

ويسجل لنا الشاعر وفاءه فى رقة وصدق ليثبت لها خلوده فى الحب ورضاه بكل ما تفعل رغم أنها لا تصدق وعدها معه ليغيظ به الحاقدين وما يبلغه من وشايات، وما يعترض سبيله من حواجز وموانع فى الوصول إليها، وما يبذله من عهود فى الوفاء والإخلاص، وما يعيش فيه من أمل اللقاء، ويصف ذلك قائلا[1]:

يسمحُ بالوعدِ ولكنَّهُ ... لايَصْدُقُ الوعدَ إذَا مَا وعَدْ

هذا ولا يُحْقِدُنِى خلقُه ... وأحمقُ العُشَّاقِ مَنْ قد حَقَدْ

قرأ تميم الكثير من الأوصاف البدوية والحضرية التقليدية فى الشعر العربى، وأحب البيئة المصرية الزراعية الحضرية، فراح يطالع ظواهرها الطبيعية والإنشائية والاجتماعية، وهذه لوحة فنية رسمها الشاعر فى وصف قبة فيقول[2]:

فى قبةٍ سمكها فى الجوِّ مشرفةٌ ... على المرادِ مياه دان تكسيرُ

كأنمَا ماؤُهَا والريحُ تدرجُهُ ... على بقاءِ نفقٍ من غيرِ تكديرُ

نقش المبارد وصبغت بعد ... ما جليت بعضاً لبعضٍ بتقديرٍ وتدبيرُ

وقد غلب عليه الشوق والهيام فأصبح متيما بها، ولكنه لم ينل ما يتمناه، وكأنه يشير إلى أن سؤال المحبوب العطف فيه مشقة عليه أو عذاب له، وأنه لن يبلغ اليأس إلى قلبه، وكل صعب يهون، وكل عسر إلى يسر، وهو القائل[3]:

كَمْ حَنَّ شوقاً وأنَّا ... وَلم يَنَلْ مَا تَمَنَّى

يا مَن إذَا سِيلَ عَطْفاً ... وسِيمَ وَصْلاً تَجَنَّى

إن كنتَ أعرضتَ لمَّا ... مَلَكْتَ دَلاًّ وَحُسْنَا

فكيفَ عَلَّمْتَ عَيْنَيْـ ... ـكَ تقتلُ هَذَا المُعَنَّى

والبيت الثانى فى قوله "وسيم وصلا" مقتبس من قوله تعالى "يسومونكم سوء العذاب"[4].

وقد عرف عن الأمير تميم بن المعز هوايته للصيد والطرد، واهتمامه بتربية واقتناء النادر من الجوارح لاصطحابها فى رحلاته إلى ضواحى القاهرة، وفى ديوانه وصف لرحلاته تلك، وخروجه قبل

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ٩/١٢، الديوان: ص١٢٥، وفى رواية الديوان البيت الثانى (ولا يحقدنى فعله).

(٢) المصدر نفسه: ٩/١٢، والأبيات غير موجودة فى الديوان.

(٣) المصدر نفسه: ١٠/١٢، الديوان: ص٤٣٦، وفى رواية الديوان البيت الثانى (وصلا .... أوسيم عطفا).

(٤) الآية ٤٩ – سورة البقرة.

انقضاء الليل إلى الفيافى ممتطياً جواده ومعه سيفه ورماحه وعدته فى الصيد الذى يبين بعض فوائده، فيقول الشاعر واصفاً الصيد والطرد ويفتخر[١]:

قد أغتدِى تحتَ الصباحِ المسفِرِ ... وأنجمُ الجوزاءِ لم تغوِّرِ
كأنَّها تحتَ الرواقِ الأخضرِ ... تَسْبَحُ فى باطِيةٍ من عنبرِ
سبقتُ أُولى فجرِها المنوَّرِ ... بأكْلُبٍ مخرنطِماتٍ ضُمَّرِ
مخزُومةٍ أشداقُها للمنخرِ ... يلاحِظُ الوحشَ بعينِ المثأرِ
من ذِى سباقٍ ليسَ بالمقصرِ ... كأنَّهُ فى لونِهِ المشهَّرِ
ملتحِفٌ بحُلَّةٍ من عَبْقَرِ ... يكادُ من سرعَتِهِ إلى العِثْيَرِ
يسبِقُ أولى زَوره بالمُؤْخِرِ ... لا يضعُ النَّاب بغيرِ منخرِ
حبالة الوحشِ وقَيْدُ الجؤذرِ ... (أنا ابن من شُفِّع يومَ المحشرِ)[٢]

والحديث عن الموسيقى والغناء مما لا يفتأ تميم يكرره فى شعره الخمرى حيث يطيب له شرب الخمر القديمة المعتقة التى طال عليها الأمد، فيتحدث تميم عن هذه الحالة قائلاً[٣]:

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ١٠/١٢، الديوان: ٢٣٩، ٢٤٠.

وفى رواية الديوان:

قد أغتدِى قبل الصباح المسفِر ... والليلُ فى ديجوجِه المعسكِرِ
وأنجمُ الجوزاءِ لم تغوِّر ... كأنها تحتَ الرواقِ الأخضرِ
تَسْبَح فى باطِيةٍ من عنبرِ ... والأُفْق قد غرَّب فيه المشترِى
كما زهت قِلادةٌ من جوهرِ ... سبقتَ أُولى فجرها المنوَّرِ
بأكْلُبٍ مخرنطِماتٍ ضُمَّرِ ... مهروتة أشداقُها للحنجرِ
من كلِّ مفتولِ الذراعِ قَسْوَرِ ... ليسَ بمسبوقٍ ولا مقصَّرِ
مستأسِدٍ مؤيَّدٍ مظفَّرِ ... يلاحِظُ الوحش بعينِ المثأرِ
كأنه من لونِهِ المشهرِ ... ملتحِفٌ بحُلَّةٍ من عَبْقَرِ
يكادُ من سرعتِهِ فى العِثْيَرِ ... يسبِقُ أولى زَوره بالمُؤْخِرِ
لايضعُ الناب بغيرِ منخرِ ... فأىّ جأب عانةٍ لم يَجْزُرِ
حبائل للوحشِ قَيْدُ الجؤذرِ ... أنا ابن من شُفِّعَ يومَ المحشرِ

(٢) زيادة من الديوان: ص٢٤٠.

(٣) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ١٠/١٢، الديوان: ص٢٤٧.

طَـــابَ شـــربُ الخندريـــسِ ومعاطـــــاةُ الكـــــــؤُوسِ
وغِنَـــــاء يخلـــقُ اللـــــ ـــــذاتِ فـــى سِـــرِّ النفُـــوسِ

ولا يشرب تميم فى وقت دون آخر، بل يشرب فى الليل والنهار، وقد تخدر الخمر العقل، وتساور السكارى أشتات الخيالات فيبدو له الأفق وكأنه فتاة حسناء فيصفها فى ثناياها واحمرار خدودها فيقول[1]:

اِشْـرَبْ علَـــى وردَتِهـــا زبَـدَا واللَيْلُ نال قـــد بَـــدَا بالسعـــودْ
كأنَّمَـــا الأُفْـــقُ بـــه لَا بِـــسُ نـــورَ الثنَايَا واحمـــرارَ الخُـــدودْ

وفى شعر تميم كثير من معانى الحب كالاتصال بالحبيب بالرسول أو الكتاب أو الغمز بالعين أو المحادثة أو الوصال، وما يكون بين الحبيبين من الصفاء أو الوفاء أو الغدر أو الهجـر أو السلوك أو البين يقول الشاعر[2]:

بدأتُ فيكم لنـارِ الشَّوقِ أحشَائِـــى ولم تَعُدْ بعدكـــم للنَّـــومِ أعنَائِـــى
لو كانَ حبُّكَ فى أمْـــرِى لحاجتِـــه لَمَا غَـــدَتْ خُصَمَائِـــى فِيكَ أَهْوائِـــى

وكذلك تتخذ الصيغ اللغوية والتراكيب فى بعض الأحيان - نوعاً من التغيير بهدف خلق نـوع من التوازن الإيقاعى والدلالى داخل السياق على اعتبار أن طواعية هذه الصيغ وقابليتها للتغيير ليست دليل ضعف على الشاعرية وإنما هى قدرة إبداعية تحسب للشاعر وتصير - فيما بعد - ملكـاً لـه ومن التغييرات أن تزيد حرفا لاستقامة الوزن والحفاظ على البنية المقطعية لمنطقة القافيـة، وذلك كما فى قوله: (من البسيط)

بدأت فيكم لنارِ الشَّـــوقِ أحشَائِـــى ولم تَعُدْ بعدكـــم للنَّـــومِ أعنَائِـــى

فأراد "عيناى" وزاد الهمزة للضرورة.

وقوله[3]:

---

(١) مسالك الأبصار - أحمد زكى باشا: ١٠/١٢، الديوان: ص١٠٧، وفى رواية الديوان:

اشرب على ضوء نهار بدا فمزق الليل وأبـدى السعـود
لا أقر له إلا عينا لشايـذ ـك وأعطاك فى البقاء الخلودا

(٢) المصدر نفسه: ١٠/١٢، ١١، الديوان: ص٣٠، وفى رواية الديوان البيت الأول (بذلت فيكم لنار الشوق أحشائى ولم تغز بعدكم بالنوم عينائى)، والبيت الثانى (عن أمرى).

(٣) المصدر نفسه: ١١/١٢، الديوان : ص٢١٦، وفى رواية الديوان البيت الأول (أتاح لمقلتـى السهرا وجـار علـى واقتدرا) والبيت الثانى (يعاقب القمرا).

أَتَـاحَ لَقلْبِـــــى السَّهَـــرَا ومَـــا أَبْقَـــى وقَـــدْ قَـــدَرا
ومَـــنْ أودَى بـــهِ قَمـــرٌ فكيـــفَ يعاتِـــبُ القَمَـــرَا

يقول مؤلف مسالك الأبصار: "النصف الأول من البيت الأول يشبه نصف بيت له تقدم بدهو بمعناه بل هو إياه، إلا أنه قال فى الأول أباح بالباء الموحدة، وقال هنا أتاح بالمثناة وهذا الفرق"(١).

ويدخل رد العجز على الصدر ضمن ألوان التكرار الموسيقى أو الإطار الدلالى المتفرد (للكلمة)، ويعرف كذلك بالترديد وبالتصدير أورد أعجاز الكلام على ما تقدمها؛ وربما كان لتسمية الترديد دلالة صوتية لأن اللفظة التى تذكر فى الشطر الأول من البيت ما يكاد صداها ينداح حتى يتردد مرة أخرى فى الشطر الثانى ومن شأن هذا الترديد أن يخلق نوعا من التنغيم الذى يربط بين شطرى البيت كما فى قوله تميم:

ومَـــنْ أَوْدَى بـــهِ قمـــرٌ فكيـــفَ يعاتِـــبُ القَمَـــرَا

وهكذا من خلال ما قرأنا من شعر تميم نحس فيه سهولة العبارة، ووضوح المعانى فليس هناك غموض أو التواء أو عنت، كما تنوعت أساليبه حيث استخدم الأسلوب المباشر، والأسلوب غير المباشر من قصة وحوار وإنطاق، ولعلها خطة ناجحة أراد بها الشاعر أن يطرد الملل، وتتنوع فنونه ما بين خمر وغزل ومديح ووصف وفخر وشكوى ورثاء وإخوانيات، وقد نال كل فن من هذه الفنون جانبا من شعره، وإن كان المديح هو الذى شغل الجانب الأكبر منه.

يتضح لنا مما درسناه أن تميمًا ليس بسارق، وأن ما توارد عليه مع الشعراء الآخرين إنما هى معان عامة فى المدح، أو هى حسن الاتباع، والقدرة على الاختراع فى نظر القلقشندى، أو التحوير فى نظر د. شوقى ضيف حيث يؤكد على ذلك بقوله: "ومن أجل ذلك كنت أؤثر أن ننحى التسمية القديمة، ونضع مكانها اسم "التحوير" إذ يأخذ الشاعر معنى مسبوقا أو مطروقا، فيديره فى ذهنه، ومازال به يحور فيه حتى يظهرنيه فى هيئة جديدة كأنها تخالف الهيئة القديمة"(٢).

فالتحوير يعد أوضح تعبير من السرقات التى تداولها النقاد فى تعبيراتهم، ذلك لأن تراثنا فيه اتباع، وفيه اختراع، وفيه تحوير، ولايمكن أن نجعل ذلك سرقة أو تقليدا، أو غير ذلك.

ولعل أستاذنا الدكتور هدارة خير من تصدى لذلك فى كتابه "مشكلة السرقات فى النقد العربى" حول علاقة الشاعر بالتراث الشعرى القديم، وضرورة اطلاعه عليه ليتكون عنده الإطار

---

(١) مسالك الأبصار – أحمد زكى باشا: ١١/١٢.

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى – د. شوقى ضيف – القاهرة – دار المعارف ١٩٧٨م: ص٢٩٦.

الشعرى الذى يعتبر الأساس الأول فى عملية الإبداع الفنى. وما دمنا قد سلمنا بهذه الحقيقة وجعلنا منها ضرورة واجبة فى الفن عامة وفى الشعر على وجه الخصوص فإننا نستطيع حينئذ فهم التشابه الذى التبس أمره على النقاد الأقدمين بين بعض معانى المحدثين وصورهم، ومعانى الأقدمين وصورهم. فقد حسب بعض النقاد الأقدمين أن ذلك من باب السرقة التى يجب محاسبة الشاعر المحدث عليها، ولم يفهموا طبيعة الإطار الشعرى الذى يفرض عليه قراءة إنتاج من سبقوه، ومن ثم اختزان ما قرأ فى ذاكرته حتى إذا ما هبط الإلهام وبدأت عملية الإبداع الفنى، وامتاح الشاعر صوره ومعانيه من ذاكرته، فإذا حدث تشابه بين بعض معانى الشاعر وصوره وبين معانى بعض الشعراء الأقدمين وصورهم كان ذلك نتيجة التذكر التلقائى المعتمد على فكرة تداعى المعانى أو نتيجة الاستدعاء المعتمد على قانونى الحداثة والتردد[1].

ومن هنا يمكن القول إن اتهامه بالاستعانة بغيره على عمل الشعر يحتاج إلى دليل، وها هو ذا شعره كله لمن يقرؤه، ويعيد النظر فيه، وإن يفعل ذلك فلن يجد فيه غير استواء النفس، ولن يرى فيه علوا أو هبوطا. كما هو الشأن عند اختلاف الناظم. وكأنه يسقى من ماء واحد.

ولا غرابة فى أن اتصال تميم بهؤلاء الشعراء والأدباء فى عصره قد صقل موهبته، وثقف قناته، وهذب حسه وأرهفه، فضلاً عن تلك المنتديات الأدبية ومجالس الغناء التى غشيها وحل فيها، وكذا الديارات - ملتقى الأنس والطرب - التى رحل إليها، كل هذا أكسبته ظرفاً فى شمائله، وخفة فى روحه، وصفاء فى ذهنه، ورقة فى طبعه، ودقة فى خياله، فاستخرج دقائق المعانى وأروع التشبيهات، ويضاف إلى هذا وتلك، إلمام شاعرنا بالتراث العربى من أشعار وأخبار وتواريخ وأحداث وأنساب، وكثيراً ما نظر فى أشعار السابقين وهو ينشئ شعره فعارضها، واقتبس من صورهم وغيَّر فيها وحور وعدل وبدل مما يدل على خلفيته العميقة بالتراث.

---

(١) مشكلة السرقات فى النقد العربى - د. محمد مصطفى هدارة - ط٣ - المكتب الإسلامى - بيروت ١٩٨١م: ص٢٨٥، ٢٨٦.

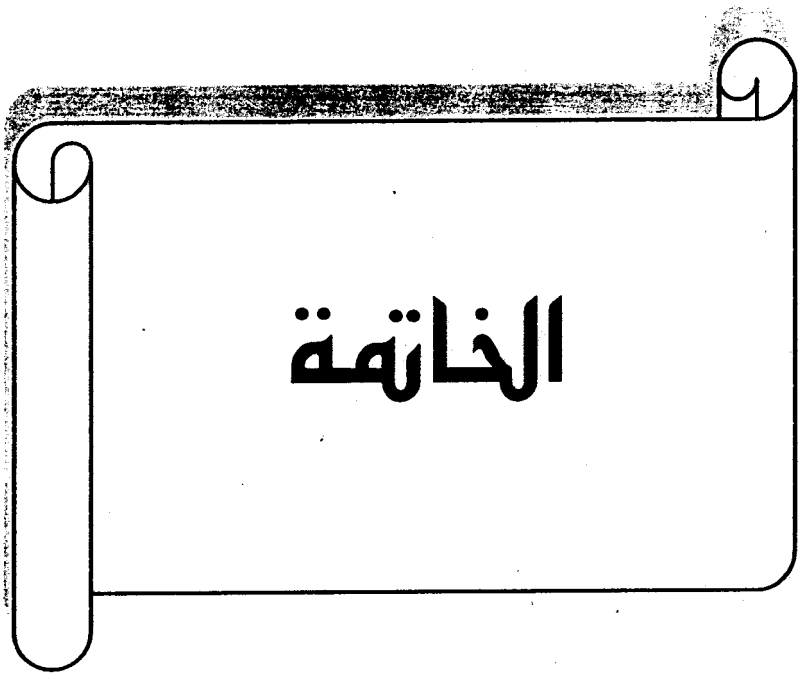

الخاتمة

الخاتمة:

لقد نشأ العمرى فى بيئة خصبة مستنيرة جعلته يغترف من العلوم والمعارف المختلفة وهو العصر المملوكى الذى كان بحق فترة ازدهار عقلى وتألق حضارى حيث شهد ظهور الموسوعات التى كانت ومازالت تفخر بها المكتبة العربية لتكون للناس مراجع وللعلم مصادر، كل هذا كان له أكبر الأثر فى شخصيته، بالإضافة إلى ما يتمتع به مؤلف الكتاب من مكانة علمية مرموقة، وذوق أدبى وفنى رفيع أهله لأن يتبوأ رئاسة ديوان الإنشاء، هذه الوظيفة التى لا يتولاها فى الدولة إلا أجل كُتَّاب البلاغة، وكيف لايكون كذلك وهو سليل أسرة كبيرة جليلة من الأسرات التى تولت رئاسة ديوان الإنشاء فى مصر مدة قرن من الزمان تقريباً، الأمر الذى انعكس بوضوح على كتابه ومؤلفاته.

ولعل الهدف من تأليف الكتاب كما جاء فى مقدمة المؤلف هو إثبات نبذة دالة على المقصود فى ذكر الأرض وما فيها ومَنْ فيها، فهى موسوعة جغرافية تاريخية يمكن أن يستفيد منها طبقة عريضة من القراء، غير كتبة الدواوين لما ورد فيها من معلومات أدبية وتاريخية وجغرافية واسعة بالإضافة إلى عدد ليس بقليل من المنتخبات الشعرية والنثرية للمؤلف ولغيره من الأدباء، ولهذا نرى فى موسوعته كثيراً من أدب عصره ووقائع أدبه.

ومن أهم ما يمتاز به الكتاب فى أنه أخذ طابع الموسوعات لما حواه من ثروة علمية وأدبية شملت علوماً وفنوناً عديدة فى مجال العلم والثقافة والمعرفة الإنسانية، بالإضافة إلى شخصية المؤلف وتمكنه من اللغة العربية، ومعرفته الجيدة بأسرار البلاغة جعلته حريصاً على ألا يكون هناك إطالة أو إسهاب، هذا إلى جانب قدرته وبراعته فيما يعرضه لنا فى كتابه، وانتقائه لمواد الكتاب، وللمصادر الأدبية والعلمية المختلفة وكلها مصادر أصيلة اتسمت بالدقة والوثوق والمعاصرة.

ومما يزيد من قيمة الكتاب الأدبية والعلمية هى تلك الأخبار والمعارف الهامة بالإضافة إلى ما أورده المؤلف من قصائد شعرية ورسائل أدبية له ولغيره من الأدباء.

ومما يؤكد تميزه عن غيره أنه نظم كثيراً من القصائد، والأراجيز، والمقطعات، والدوبيت، والموشح، والبليق، والزجل، وأنشأ كثيراً من التقاليد، والمناشير، والتواقيع، ومكاتبات الملوك، وغير ذلك.

لقد استطاع العمرى بحق أن يلتزم فى كتابه بالمنهج الذى وضعه لنفسه، والوصول به إلى الغاية التى يسعى إلى تحقيقها من خلال ثقافته الواسعة، وخبرته فى مجال الكتابة والإنشاء.

وهكذا وجدنا أنه برغم الفائدة الكبيرة التى يلقاها الباحثون والمثقفون من وراء هذه الموسوعة

الهائلة فى شتى العلوم والمعارف الإنسانية إلا أن أمرها مـازال يحتـاج إلى بحـث طويـل وعمـل دؤوب متصل.

وفوق هذا كله نرى ابـن فضـل الله العمـرى يعنـى عنايـة عظيمـة بمصـر مـن جميـع جوانبـها وبخاصة جانب الشعر منها، حيث يمدنا بقائمة طيبة لأسماء شعراء من المصريين بلغ مجموعهم نحواً من خمسين، وأولهم تميم بن المعز.

وعلى الرغم من تناول بعض الباحثين لشعر تميم بالدراسة، إلا أن أحداً منهم - فيمـا أعلـم - لم يتناوله من خلال ما ورد من شعره فى ترجمته التى أوردهـا لـه ابـن فضـل الله العمـرى فـى كتابـه "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار". وانطلاقاً من هذا المنظور جاءت دراستى التطبيقية لشعر تميم بـن المعز لدين الله الفاطمى دون غيره من شعراء مصر الخمسين لما له من مكانة فنية رفيعة فى عصره، فهو أمير وشاعر موهوب حيث يعدونه شاعر أهل بيت العبيديين غـير منـازع، ولا مدافـع، اجتمعـت كـل المقومات له لتكون شخصيته الفنية المستقلة، وإبداعاته المتفـردة، وأسـلوبه ورؤيتـه الخاصـة للحيـاة، وإن لم يتبوأ المكانة التى يستحقها حيث تخطته الأضواء إلى كثير ممن هم دونه مكانة وشاعرية.

كان تميم يحيا فى مصر حياة لهو وترف، حيث عاش فيـها الشـطر الأعظـم مـن حياتـه وسـط بيئة متحضرة من متنزهات وديارات وجد فيها ما يوافق هواه ومزاجـه، فشـارك المصريـين وأصحـاب اللذة والمجون لهوهم، ومن هنا ظهرت آثار البيئة المصرية فـى شـعره طابعـا ولغـة وانتمـاء، تحـدث عنها فكان حديثه حديث الآلف لا الغريب، ولانت عبارته وتلونـت بمـا أحـاط بـها، فنجـده يختـار كلماته بدقة، ويصوغ أفكاره بعناية، فلا تجد فيها أثرا للتصنع أو التكلف، فلم يكن متكلفا لكلماتـه، بل ساقها كيفما خطرت على باله، وتنوعت صوره الشعرية بين صور جزئية ولوحات كبرى توسل فى كل منها بوسائله الفنية من تشخيص وتجسـيد وتجسـيم. وشـكل لنـا صـورا تنطـق بالحيـاة والحركـة قوامها الواقع والخيال، عبر بها عن خصوصية كل شعور يمر به فصارت تحمـل دلالات تتصـل بـذات مبدعها وكيانه الداخلى، وهى صور فى مجملها تـدل علـى خيـال واسـع، وقـدرة كبـيرة علـى الخلـق والإبداع، وسيطرة تامة على أدوات الفن، ومقومات الصناعة ووسائل التعبير.

وقد استطاع تميم أن يحافظ على الوحدة البنائية لقصائده وبخاصة التـى تتداخـل موضوعاتـها وتتعدد أغراضها، حيث أجاد فى مواضع كثيرة منها حين استخدم الروابط التى ينتقل بها مـن غـرض لآخر استخداماً جيداً، وكان تقليدياً فى بعض تخلصاته حين لبس عباءة القديم واستخدم وسائلهـم التقليدية فى الربط والانتقال من غرض لآخر فكانت هذه الروائع التى لانجدها عند غيره من الشعراء.

ولعل تحقيق الوحدة العضوية فى قصائده الشعرية لا يرجع إلى تنظيم أجزائها وتسلسل أفكارها واتحاد موضوعاتها فحسب، وإنما هى قدرة القصيدة على نقل وإحساس واحد مهيمن عن طريق صورها وكلماتها وخصائص أسلوبها، فضلاً عن سيطرة عاطفة واحدة على القصيدة كلها.

وفى أشعار تميم بن المعز روافد ثقافية غذى بها نفسه، منها الموروث الشعرى القديم، الذى راح يستوحى منه بعض صوره حينا، ثم يعالجها فيجدد فيها بما تمليه متطلبات عصره حيناً آخر، هذه الروافد تظهر عمق ثقافة الشاعر واطلاعه الواسع، وإذا كان تميم قد تأثر بغيره من الشعراء، وتمثله واحتذائه لمعانيهم وصورهم، واستدعائه لها فى المواقف المتشابهة، فإن الناظر فى شعره يراه وقد راح يمتاح من معين محفوظه الذى غاض فى اللاشعور، ثم فاض فى شعره، عن عمد تارة، وعن غير عمد تارة أخرى، صادراً فى أغلب الأحيان - عن نفس شفافة مثقلة بالمعانى، وعن شعور صادق أصيل لا شك فيه وهو بهذا يمثل الإطار الخاص الذى يوجه عملية الإبداع أو زمام الشاعرية عنده، ويهب النص قيمته ومعناه.

ولعل السمة البارزة فى معارضات تميم أنه انطلق من الموروث فى تشكيله الإبداعى مستخدماً حقه فى استلهام التراث وتمثله إلى جانب طموحه المشروع فى إثبات ذاته ومحاولته الاستقلال بشخصيته الفنية.

لقد ظهر واضحاً من خلال دراستنا لشعر تميم أنه قد صاغ تجاربه وإبداعاته فى القالب المألوف لدى شعراء العربية، ولم يتجه إلى الأوزان النادرة التى شاعت لدى المولدين، وإنما اتجهت حركته نحو الأوزان الشائعة التى استوعبها العروض العربى.

وهكذا كانت البيئة المصرية من خير البيئات روعة وجمالاً، وجد شاعرنا فيها بلاطاً كذلك الذى أتيح لجرير والبحترى والمتنبى وسائر المادحين، ورزق وسطاً مترفاً كوسط ابن المعتز، وبيئة جميلة كبيئة الصنوبرى، وسيق إلى مجتمع كمجتمع أبى نواس، وولد لأسرة أورثته مجداً يفوق مجد أبى نواس، ومن هنا كان حرياً بتميم أن يتأثر بالبيئة المصرية أكثر مما تأثر، لو لم يعش فى المغرب أكثر عمره.

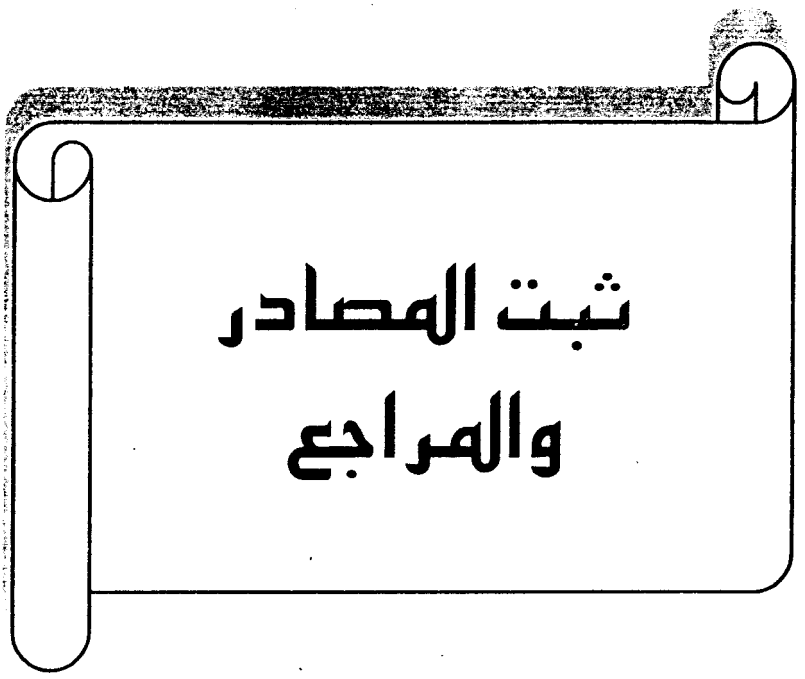

ثبت المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع:

١- آفاق الشعر العربى فى العصر المملوكى - د. ياسين الأيوبى . جروس برس - طرابلس - لبنان ١٩٩٥م.

٢- الأدب فى العصر المملوكى - د. محمد زغلول سلام - جـ١، جـ٢، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م.

٣- الأعلام - خير الدين الزركلى - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٦م.

٤- أعيان الشيعة - العاملى - الطبقة الثانية - مطبعة الإنصاف - بيروت ١٩٦٠م.

٥- أعيان العصر وأعوان النصر - صلاح الدين الصفدى - تحقيق د. نبيل أبو عمشة، د. محمد موعد، د. محمود سالم محمد، دار الفكر - دمشق - سورية ١٩٩٧م.

٦- إغاثة الأمة بكشف الغمة - المقريزى - نشر محمد مصطفى زيادة ، وجمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧م.

٧- بدائع البدائه (على بن ظافر الأزدى) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

٨- بدائع الزهور فى وقائع الدهور - ابن إياس - تحقيق محمد مصطفى - مطبعة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٧٥م.

٩- البداية والنهاية فى التاريخ - ابن كثير - مطبعة السعادة، ١٩٣٢م.

١٠- تاريخ آداب اللغة العربية - جرجى زيدان - طبعة دار الهلال، ١٩٥٧م.

١١- تاريخ الأدب الجغرافى العربى - كراتشكوفسكى - ترجمة صلاح الدين هاشم - طبع جامعة الدول العربية - مصر ١٩٦٣م.

١٢- تبيين المعانى فى ديوان ابن هانئ - مصر ١٣٥٩هـ.

١٣- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة- تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - الطبعة الأولى - دار إحياء الكتب العربية (الحلبى)، القاهرة ١٩٦٨م.

١٤- الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول - د. عبد اللطيف حمزة - طبع بمصر ١٩٦٨م.

١٥- الحلة لسيراء (ابن الآبار) تحقيق د. حسين مؤنس - الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.

١٦- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة - لابن حجر العسقلانى - تحقيق محمد سيد جاد الحق - مطبعة المدنى، القاهرة ١٩٦٧م.

١٧- الديارت (أبو الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتى) - تحقيق كوركيس عواد - مطبعة المعارف - بغداد ١٩٥١م.

١٨- ديوان ابن خفاجة - تحقيق د. السيد مصطفى غازى - منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٦٠م.

١٩- ديوان ابن الرومى - تحقيق د. حسين نصار - ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م.

٢٠- ديوان ابن المعتز - تحقيق كرم البستانى - دار صادر بيروت - لبنان ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

٢١- ديوان أبى نواس - تحقيق بدر الدين حاضرى، ومحمد حمامى - ط١، دار الشرق العربى، بيروت ١٩٩٢م.

٢٢- ديوان الأخطل - تحقيق د. فخر الدين قباوة - دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٩م.

٢٣- ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى - الطبعة الثانية - دار الكتب المصرية ١٩٩٥م.

٢٤- ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب - تحقيق د. نعمان محمد أمين طه - ط٣، دار المعارف ١٩٨٦م.

٢٥- ديوان حسان بن ثابت - تحقيق د. سيد حنفى حسنين - ط دار المعارف ١٩٨٣م.

٢٦- ديوان الخالديين - تحقيق د. سامى الدهان - دار صادر بيروت - لبنان ١٩٩١م.

٢٧- ديوان دعبل بن على الخزاعى - تحقيق عبد الصاحب الدجيلى الخزرجى - مطبعة الآداب - النجف ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

٢٨- ديوان الدوبيت فى الشعر العربى - د. كامل مصطفى الشيبى - منشورات الجامعة الليبية ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٢٩- ديوان الصنوبرى - تحقيق د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - لبنان ١٩٧٠م.

٣٠- ديوان طرفة بن العبد - شالون ١٩٠٠م.

٣١- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - تحقيق محمد يوسف نجم - دار صادر بيروت . د. ت.

٣٢- ديوان المتنبى - تحقيق د. عبد المجيد دياب - ط دار المعارف ١٩٨٦م.

٣٣- ديوان مجنون ليلى - تحقيق عبد الستار أحمد فراج - دار مصر للطباعة ١٩٧٩م.

٣٤- ديوان الوأواء الدمشقى، ليدن ١٩١٣م.

٣٥- ذيول العبر فى خبر من غبر - الحافظ الذهبى - تحقيق محمد السعيد بن بسيونى زغلول - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان -د.ت.

٣٦- السلوك لمعرفة دول الملوك - للمقريزى - تحقيق محمد مصطفى زيادة - دار الكتب المصرية ١٩٣٤م.

٣٧- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - لابن العماد الحنبلى - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - د.ت.

٣٨- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا - القلقشندى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر . د.ت.

٣٩- عصر سلاطين المماليك - د. محمود رزق سليم - مطبعة الآداب ١٩٦٥م.

٤٠- العصر المماليكى فى مصر والشام - د. سعيد عبد الفتاح عاشور - دار النهضة العربية ١٩٦٥م.

٤١- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - د. شوقى ضيف - القاهرة دار المعارف ١٩٧٨م.

٤٢- فوات الوفيات - لابن شاكر الكتبى - تحقيق د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - لبنان ١٩٧٣م.

٤٣- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون - حاجى خليفة - طبع دار المثنى - بغداد - د.ت.

٤٤- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار - ابن فضل الله العمرى - تحقيق أحمد زكى باشا. الجزء الأول - القاهرة ١٩٢٤م.

٤٥- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (القسم الخاص بمملكة اليمن) - ابن فضل الله العمرى - تحقيق أيمن فؤاد السيد - دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٧٤م.

٤٦- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (قبائل العرب فى القرنين السابع والثامن الهجريين) - ابن فضل الله العمرى - تحقيق دوريتاكرافولسكى - المركز الإسلامى للبحوث - بيروت ١٩٨٥م.

٤٧- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (فى مملكة الهند والسند) - ابن فضل الله العمرى - تحقيق د. محمد سالم بن شديد العوفى.

٤٨- مشكلة السرقات فى النقد العربى - د. محمد مصطفى هدارة - ط٣ المكتب الإسلامى، بيروت ١٩٨١م.

٤٩- معيد النعم ومبيد النقم - تاج الدين السبكى - تحقيق محمد على النجار وآخرين - الطبعة الأولى - دار الكتاب العربى بمصر ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

٥٠- مناهج التأليف عند العرب - د. مصطفى الشكعة - قسم الأدب - طبع بيروت ١٩٧٤م.

٥١- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى - ابن تغرى بردى - تحقيق أحمد يوسف نجاتى، دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.

٥٢- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - لابن تغرى بردى - طبع دار الكتب المصرية ١٩٤٠م.

٥٣- نصرة الثائر على المثل السائر - للصفدى - تحقيق محمد على سلطانى - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - د.ت.

٥٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - التلمسانى - تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعى - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٦م.

٥٥- الوافى بالوفيات - صلاح الدين الصفدى - محمد يوسف نجم - دار صادر بيروت جـ٨، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٥٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - ابن خلكان - تحقيق د. إحسان عباس، جـ١، دار صادر بيروت ١٩٦٨م.

٥٧- يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر - الثعالبى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - جـ١، دار الفكر - بيروت ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م.